
مطبوعات أخبار اليوم
قطاع الثقافة
نفوس من ذهب ونحاس
ثروت أباظة

مطبوعات أخبار اليوم — قطاع الثقافة

١

الغلاف والتصميم الداخلى :

احمد سامح

الغلاف والرسوم الداخلية بريشة الفنان :

سيد عبد الفتاح

■ دار أخبار اليوم ■

قطاع الثقافة

جمهورية مصر
العربية
٦ شارع الصحافة -
القاهرة
تليفون/ فاكس
٥٧٩٠٩٣٠



نقوش من ذهب ونحاس

ثروت أباظة

١

هى قصة ذات عروق بعيدة فى أغوار الزمن. لست بطلا من أبطالها ولكننى أحب أن أحكيها.. كيف أحكيها وأنا لست واحدا من أبطالها.. هل يهمك كثيرا أن أكون من أبطالها مادمت سأرويها لك.. لن أقول لك انها من واقع الحياة. فلا أحب أن أكون سخيفا إلى هذا الحد. ولكننى فى الواقع لست أدرى إن كنت أنت تحب الرواية من واقع الحياة أم من واقع الخيال. يقول الروائيون إن أهم شىء فى العمل الفنى أن يكون مقنعا ولا يهم من بعد المصدر الذى يصدر عنه. ولكن الحياة حين تؤلف لا تحاول أن تقنع. إنها تؤلف وتنفذ مؤلفها على الحياة وعلى صلات الناس بعضهم ببعض. وعلى بدايات حياتهم وعلى نهايتها ولا يعنيها فى شىء أن تكون مقنعة أو غير مقنعة للناس.. الناس جميعا فى كل مكان شهود فى كل قصة. وأبطال فى كل قصة. وقد تلهيهم الأحداث عن محاولة الفهم. وقد يفكرون. والذين يفكرون هم الأغبياء لأنهم لن يبلغوا من تفكيرهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من طمأنينة. بل هم سيزدادون

حيرة وقلقا. بل قد يزدادون سخطا وتبرما ولا تعنى الحياة فى كثير أو قليل بحيرتهم أو قلقهم أو سخطهم أو تبرمهم.

تجرب فيهم وما يعلمون.

كتجربة الطب فى الأرنب

ولكن هل تجرب فيهم الحياة حقيقة كتجربة الطب. إن الطب حين يجرب يحاول أن يصل إلى نتيجة معينة من تجربته. فإلى أى نتيجة تحاول أن تصل الحياة؟ يبدو أننى سأصبح غبيا كهؤلاء الذين يفكرون.. عادة ساذجة. عادة التفكير هذه.. وكلما ازداد التفكير عمقا يكون صاحبه أكثر سذاجة.. فالأذكياء وحدهم هم الذين يعرفون أن لا أمل أن يصلوا بتفكيرهم إلى نتيجة مؤكدة. واضحة المعالم. ولكن هناك أنواعا من التفكير لا بأس بها.. منها ذلك التفكير الجاد الخطير الذى كان يستغرق راشد بك برهان وهو جالس بمكتبه الضخم فى سرايه الواقعة بشارع خيرت..

كان راشد بك يريد أن يسافر إلى أوروبا وهو يبحث عن مواعيد السفن المسافرة. وهو حريص على أن يسافر على أول باخرة.. فقد تشوق إلى باريس وإلى أصدقائه هناك. ولست فى حاجة إلى ذكاء لتعلم أن هؤلاء الأصدقاء إنما هن صديقات. ولكن الحشمة تحتم أن نكتبها أصدقاء. إنهن كثيرات هؤلاء الأصدقاء..

كان اليوم هو السبت وقد وجد راشد بك سفينة فى طريقها إلى مرسيليا فى يوم السبت الذى يليه. وكان لابد له أن يبلغ السيدة والدته عن هذا السفر حتى تشرف على تجهيز ملابسه. وترى ما الذى يحتاج إليه قبل أن يسافر. وكان لابد له أيضا أن يستقل القطار إلى التفتيش ليلقى نظرة نهائية على حسابات الزراعة ويأخذ ما حصله حمزة أفندى البلاشونى من ايراد الأرض.

وقام راشد بك إلى والدته وراح يصعد السلم إلى الطابق الأعلى فى هدوء وفى تفكير عميق. كان السلم يفضى إلى بهو عريض شامخ الأعمدة عميق الفخامة تقوم فيه الأرائك الضخمة عليها القطيفة المزركشة القادمة من جنوا. وكانت والدته قد أنشأت لنفسها فى هذا الطابق غرفة للجلوس تستقبل فيه صديقاتها. وكانت أمه جلفدان هانم تحب أن تجلس فى هذه الغرفة حتى وإن لم يكن لديها صديقات تستقبلهن. وهكذا لم يكن راشد بك محتاجا أن يتخلى عما يفكر فيه ليتجه إلى الغرفة. إنما هو يقصد إليها دون ومضة من تفكير..

إنه يعلم أنه سيفتح الباب وسيراها فى كرسيها الكبير المجاور للمرآة التى تواجه الباب. يعلم ذلك ولم يفكر فيه.. لقد كان مشغولا بما يحتاج إليه من نقود فى باريس وبما سيجده عند حمزة أفندى البلاشونى ويفتح الباب. أمه بجانب المرآة. والمرآة مازالت تواجه الباب ولكن... ما هذا الجمال الذى يقف بجانب صورتى فى المرآة.. من هذه؟ كيف لم أرها قبل اليوم. وكيف كان يمكن أن أراها. طبعا سترفع اليشمك إلى وجهها. لقد بقيت العينان.. تكفينى العينان.. جمال الدنيا كلها فى هاتين العينين. لم يحس راشد بك بالأعين الأخرى التى تعلقت به. ولا أحس بعينى أمه التى أدهشها وقوفه بعد تأكده من وجود حريم معها. لم يحس شيئا من هذا وإنما ظل رانيا إلى العينين اللتين تطلان من فوق اليشمك. وطالت به الوقفة حتى اضطرت الأم آخر الأمر أن تقول:

- فيه حاجة راشد بك؟

وانتبه راشد بك فجأة لينحنى قائلا وهو يقفل الباب:

- عفوا هانم أفندى.

ويعود إلى مكتبه. ويجد جدول البواخر ينتظره فيطويه فى هدوء ويضعه فى الدرج الأسفل من مكتبه. ويمد رجليه على المكتب ويزيح



طربوشه إلى الوراء ويستغرق مفكرا فى لا شىء

* * *

حين يسمع أقدام السيدات تعبر فناء السراى يقف إلى الشباك وينظر إليهن وهن يركبن العربة التى تجرها أربعة خيول مطهمة. ولم يلتفت إلى العربة ولا الخيول. وإنما تثبت نظره على التى تسير خلفهن جميعا. فلم يكن يشك لحظة أنها أصغرهن. وأنه لابد لها أن تكون خلفهن جميعا.. إن قوامها أكثر جمالا من عينيها.. أكان لابد أن يكون لهذه السراى سلم للحريم وآخر للرجال.. كنت أريد أن أراها عن قرب.. وماذا ينفع القرب. إن جمالها لا يحتاج إلى كثير من امعان النظر.. إنها جميلة.. أو هى فاتنة لاشك فى ذلك. ولكن ماذا يمكننى أن أفعل.. أخطبها.. هكذا مرة واحدة. وماذا يمكن أن أفعل غير هذا..

- هانم أفندى.

- إنها ابنة عثمان باشا فكرى.

- لا يفوتك شىء.

- وقفتك أمام الباب كانت طويلة.

- عيناها.

- نعم جميلة.

- أنت موافقة.

- لا مانع.

سكت راشد بك ولم يسأل أمه عن شىء.. وعم يسأل.. ابنة عثمان باشا فكرى.. الأمر اذن لا يحتاج إلى سؤال.. أما ثروته فمعروفة. كانت ألفى فدان بقى منها بضعة فدادين بعد البذخ الذى كان يعيش فيه. راشد بك لا يحتاج إلى مال. فثروته لا يحصيها العد. وإن كان هو يجيد احصاءها ويعرف كل خافية منها.. وعثمان باشا رجل ذو مكانة مرموقة

فى الحياة المصرية. ولاشك أنه تولى ابنته بالتربية المعهودة. فهى تجيد التركية والفرنسية وعزف البيانو واختيار الملابس واستقبال الناس وتنسيق الأثاث واعطاء الأوامر للخدم.. ولا داعى اذن للسؤال. ولكن أمه.

- لم تسأل عن خديجة؟
- اسمها خديجة؟
- يقولون إنها متحررة فى آرائها.
- كم عمرها؟
- بينك وبينها خمس عشرة سنة تقريبا.
- أنا لست كبيرا..
- ولست صغيرا.
- ست وثلاثون سنة اكتمال الرجولة.
- وعشرون سنة بداية الأنوثة.
- ولكنها ابنة عثمان باشا فكرى.
- الأنوثة لا شأن لها بعثمان باشا فكرى.
- ما رأيك؟
- لن نجد خيرا منها.
- فلماذا إذن المناقشة؟
- أريدك أن تعرف.
- إذن؟!
- أخطبها لك.


٢

المفروض أن أروى لك فى هذا الفصل موقف خديجة من هذه الخطبة. ويمكن أن أروى لك هذا الموقف بطرق عدة.. فمثلا أستطيع أن أقول إن خديجة كانت تحب ابن خالتها عزت بهادر الذى نشأ معها منذ الطفولة الأولى. وكان يقاربها فى السن. ومادمنا نتكلم عن هذه الطبقة من الناس فالمفروض أن أقول لك أنه يهوى ركوب الخيل ويجيده. وانه طلق اللسان - بالفرنسية طبعا - وأن لغته العربية لا تكاد تستقيم. وانه ممشوق القوام. تافه العقلية. لا يفكر إلا فى أتفه الأمور وأسخفها. وأكون بذلك سائرا وراء كل من كتب عن هذه الطبقة.

أو كان من الممكن أن أقول لك مثلا أن عثمان باشا فكرى دخل إلى ابنته فقال لها.

- أبشرى يا خديجة.. عندى لك أعظم خبر.

- صحيح يابابا؟

وطبعا حين تقرأ بابا لابد لك أن تشد البائين. فهكذا تنطقها ممثلات السينما فى أفلامنا العربية.. نرجع الآن إلى الحوار الذى كان من

المفروض أن أقدمه إليك.. يقول الأب وقد تهلل وجهه بالفرح:

- جاءك عريس لا مثيل له فى مصر.

وهنا كنت سأحتار كيف أكمل المشهد.. هل ستطرق خديجة فى حياء؟ أم تراها كانت ستقول.

- من؟

وعلى الحالين كان عثمان باشا يقول:

- راشد بك برهان.

وكنت سأحتار أيضا. كيف تتصرف خديجة بعد هذا. هل كانت ستسأل اباها عن العريس وأحواله جميعا من شكل وعمر.. وطبعا لا داعى للسؤال عن الشهادة أو الثقافة. فقد كانت هذه الأشياء فى ذلك الحين بعيدة عن مجال السؤال عند السيدات. وتوشك أن تكون كذلك عند الرجال أيضا.

أم تراها كانت ستطرق حياء وخجلا وتقول الجملة التى لم يستطع كاتب حوار أن يغير منها شيئا على طوال السنين.

- اللى تشوفه يابابا.

ولعلى كنت سأخرج من هذه الحيرة بوسيلة أكثر يسرا واقرب إلى منطق الأمور فأجعل خبر الخطبة ينتقل إلى الابنة عن طريق امها. وأنتهز هذه الفرصة لأقدم إليك كل ما لم تعرفه بعد عن راشد بك برهان على لسان الأم.

ولكن ما العجلة فى تعرفك على راشد برهان. ولماذا لا تتكلم عن خديجة قليلا.. فأنت لم تعرف عنها إلا أن عينيها جميلتان. ولكنك أنت لم تعرف مثلا. أن قوامها فارع رشيق لا تطغى عليه نحافة. ولا يفرط عليه سمن، وهى ذات شعر ناعم أطلقت عنانه.. هدر على كتفيها فى عربدة طاغية. وجبينها عريض فيه ذكاء. وعيناها اللتان عرفت انهما جميلتان

فيهما جرأة. وفيهما تطلع إلى المستقبل فى وثوق الذكى. وفى فتور الأنثى. وانفها دقيق مائل قليلا إلى الخد الأيمن. هذا الميل يراه بعضهم جمالا ويراه بعض آخر عيبا فى جمالها الفاتن.

وإن كنت من الذين يحبون أن يوصفوا بالمثقفين فلعلك تحب أن تعرف شيئا عن ثقافتها.. قرأت كورنى وراسين وفولتير وهيجو وفلوبير وروسو. حتى اعترافات روسو قرأتها وقرأت شكسبير مترجما. وقرأت ديكنز وهاردى وتولستوى ودستوفسكى.. أظنك عرفت الآن أنها كانت تحب القراءة. وكانت تعبد الشعر. فقد كانت تحفظ روايات كورنى وراسين جميعا وتحفظ كثيرا من شعر هيجو. ولم تكن تميل كثيرا إلى مضحكات موليير..

كانت القراءة عندها هى الوسيلة التى تفتح لها النافذة على عالم لم يكن من الممكن أن تخالطه أو تندمج فيه.. فقد كان الحريم جزءا منفصلا عن المجتمع فى ذلك الحين.. يحركنه من داخل البيوت ولكنهن لا يشاركن فى حركاته.

وكانت خديجة ـ شأن كل فتاة ـ تعرف أنها ستتزوج فى يوم من الأيام. وكانت تعتقد أنها ستتزوج رجلا مثقفا تستطيع أن تشترك معه فى أحاديث طويلة عن الشعر والأدب. وكانت الخشية تخالجها أن يكون هذا المثقف ذا ثقافة عربية وانجليزية. وليس ذا ثقافة عربية وفرنسية. فالمثقفون فى ذلك العهد كانوا جميعا يجمعون إلى العربية ثقافة أجنبية أخرى.

ولم يكن الغنى فى ذاته أمرا ذا بال عند خديجة. فالغنى عند الأغنياء شىء مفروض يعتقدون هم أنه طبيعى.. يصاحب التكوين البيولوجى لأجسامهم. فالمال عندهم شىء من المقرر وجوده كما يوجد لها عينان وأنف وشفتان ولكن الثقافة هى التى كانت نادرة الوجود. فإذا وجدت

فهى عميقة راسية الأصول بعيدة الأغوار. وقد كانت خديجة لا تتصور أن يكون خطيبها غير مثقف. ولم يكن تفكيرها هذا مجافيا للصواب. فإن والدها الذى أتاح لها هذا التثقيف لا يقبل أن ينالها شخص لا يقف مع ما بلغته من دراسة على درجة واحدة. فإن تفاوتت الدرجة فليكن هو فى العليا لا فى السفلى. وهى فى سذاجتها الثقافية نسيت أن للمال عند الأغنياء نداء ولغة يفهمونها جميعا دون اتفاق بينهم. فمن الطبيعى ألا يتزوج الغنى إلا ذات ثراء. ومن الطبيعى أن يسارع الثرى بقبول الغنى خطيبا لابنته.

وهذا الاتفاق غير المكتوب بين الأغنياء يتضمن أن كل شىء غير الثراء يمكن اغتفاره أو تجاهله.

وهكذا لم يكن عجيبا أن يقبل عثمان باشا فكرى خطبة راشد بك دون ريث من تفكير. وخصوصا أنه أصبح غنيا سابقا. ولكنه مازال يحمل اللقب «غنى».

ومن الطبيعى أيضا أن تقبل خديجة الزواج. فهى تعلم انها نهاية محتومة لحياة البنت فى بيت أبيها. أو بداية محتومة لخلية جديدة من الحياة.

والاسم الذى تقدم لخطبتها اسم ش . ر فى عالم الثراء. وليس شهيرا فى عالم الثقافة. فقد كان المجتمع فى ذلك الحين لا يلقى ستارا من التجاهل على أى مهتم بالثقافة. فلو كان على جانب منها مهما يكن ضئيلا لذاع صيته. بل إن الحياة كانت تتيح لمن يهوى شراء الكتب أن يصبح شهيرا فى عالم التثقيف حتى وإن لم يقرأ هذه الكتب. وقد كان أغلب هذا النوع من الهواة يكتفى من الهواية بالشراء دون القراءة. القراءة لها ناس.. وشراء الكتب له ناس آخرون. والذين يقرأون لا يهمهم مطلقا طريقة الطبع التى يهتم بها الشراؤون. كل ما يعنى أهل القراءة أن

تكون الحروف واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض. وقد يكون هذا الوضوح فى ذاته سببا فى رخص الكتاب لا فى غلو سعره.

ولا تنتظر منى أن أفيدك كثيرا فى الشروط التى لابد منها ليكون الكتاب تحفة أثرية ذات شأن. فأنا من ذلك النوع الساذج الذى يحب أن يقرأ ولا يهمه أن يقتنى.

على أية حال لم يكن راشد من القراعين أو الشرائين المدمنين وإن كان ملما بكثير من الكتب. وكان غنيا مدمنا للغنى. وإن كانت خديجة فى آمال اليقظة وأحلام النوم ترجو أن يكون زوجها مثقفا يحب كورنى وراسين أو المتنبى وشوقى على الأقل إلا أن هذه الآمال وتلك الأحلام لم تكن شروطا أساسية فى اختيار رجلها. فقد كانت ثقافتها تتيح لها قدرا من الذكاء تعرف به أنها هى لا تملك من حرية الاختيار القدر الكافى الذى يسمح لها أن تضع الشروط. ولو توافرت هذه الحرية فما كانت لتجعلها تضع هذه الشروط. فهذه الآمال والأحلام لم تكن إلا خواطر تهفو إلى النفس أو تهفو إليها النفس. ولكن خديجة تعلم كل العلم أنها أمل لا يزيد. أو حلم مصيره المؤكد التيقظ على الحقيقة.

وهكذا أعفتنى خديجة من الحيرة التى خشيت أن تتولانى أمامك فى بداية هذا الفصل ولم توجه إلى أبيها إلا سؤالا واحدا:

- هل أنت راض عنه؟

- وأين أستطيع أن أجد مثله؟

- أمرك اذن.

لم تسأل كم عمره. فالمجتمع لم يكن قد أتاح بعد للفتاة أن تسأل عن عمر زوج المستقبل. واذا كانت امتنعت أو منعتها التقاليد أن تسأل هذا السؤال الطبيعى المعقول. وهى أيضا لم تكن تحب ابن خالتها عزت فالطرق إذن جميعها مغلقة دون أى أسئلة أخرى. بل لعلها لم تكن تحتقر



أمامك في بداية هذا الفصل ولم توجه إلى أبيها إلا سؤالا واحدا:

- هل أنت راض عنه؟

- وأين أستطيع أن أجد مثله؟

- أمرك اذن.

لم تسأل كم عمره. فالمجتمع لم يكن قد أتاح بعد للفتاة أن تسأل عن عمر زوج المستقبل. واذا كانت امتنعت أو منعتها التقاليد أن تسأل هذا السؤال الطبيعي المعقول. وهي أيضا لم تكن تحب ابن خالتها عزت فالطرق إذن جميعها مغلقة دون أي أسئلة أخرى. بل لعلها لم تكن تحتقر أحدا في حياتها قدر احتقارها لهذا العزت. فهو فراغ تجسم في هيكل انساني. يعني كل العناية بشاربه وشعر رأسه. ولكنه لا يبذل أقل عناية برأسه هذا من داخله. فإن رأيت تمثالا. وإن حادثته وجدت التمثال خيرا منه.

فأنا اذن لا أستطيع أن أقيم عقبة من أي نوع تمنع زواج خديجة من راشد.

وتم الزواج.


٣

لو كان المتزوج أحدا آخر غير راشد لكان من الطبيعى أن يكون شهر العسل فى مصر. ولكن راشد يحب أن يذهب إلى أوروبا ويحب أن يبهر زوجته بالحياة الباذخة التى يعيشها. والفتاة على ثقافتها فى بواكير العمر ومطالع الحياة. فهى برغم يريده راشد أن يتفتح على يديه. وهو صاحب الخبرة الواسعة عن الورود التى لا تعرف الذبول. ولا يدركها ما يدرك الورود من شحوب.

يريدها امرأة كاملة المعالم: يدعو إلى بيتها كبار الناس. فيبهرهم من بيته غنى وافر. يصاحبه الذوق الرفيع. وهو يعلم منها أنها فى بيت أبيها كانت تهتم بالكتاب. ولكنه أيضا كان يقدر أن التى تهتم بالكتاب تستطيع أن تهتم بكل شىء. وهو يراها فى حجرة نومه امرأة ناضجة خبيرة عالمة بما يرضيه. ويطمئن غرور الرجل فيه ونزوته فى وقت معا.

وهو يريدها اذا ذهبت لمجتمع من النساء أوقعت فى نفوسهن الحسرة والغيرة أو الاعجاب والاكبار. ويريد منها أن تكون نموذجا للأناقة.

طراز عجيب راشد. فهو قد نال من التعليم المنتظم قدرا ربما اعتبره

البعض ضئيلا. وخرج بعد ذلك إلى الحياة. فإذا هو يصاحب الحياة صحبة عميقة لبقة، ويوغل فيها ايغالا رفيقا فى بعض الأحيان، وفيه عنف شديد فى بعض آخر من الأحيان.

عرف الناس من كل متجه من متجهات الحياة، ودرس من القانون ما يعنيه من القانون، فإذا هو يفوق عتاة المحامين ومشاهيرهم، وضارب فى بورصة الأوراق المالية والقطن فانسكب عليه المال يزيده غنى، وأصبح راشد شخصية مرموقة فى المجتمع المصرى تضطر الأنظار ان تلتفت إليه. فلم يكن التعليم المنتظم هو المصدر الوحيد للثقافة فى ذلك الحين. بل إن المحامين كانوا يعملون بغير شهادة من الحقوق فى ذلك الزمن. وقد اختار راشد من الثقافة ما يرى انه يحتاج إليه. ولهذا لم يكن عجيبا أن يتقن الفرنسية لا ليقرأ بها كورنى وراسين، وإنما ليقرأ بها العقود وليضارب بها فى البورصة، وليجتذب بها الأصدقاء من الفرنسيين، وتعلم الانجليزية وأتقنها، ولكن شكسبير وملتن وهاردى وديكنز كانوا لا يعنون عنده شيئا إلا أسماء يرددها على مسمع الانجليز الذين يتعرف عليهم.

قد كان نوع الثقافة التى يتمتع بها راشد من فصيلة أخرى بعيدة كل البعد عن تلك الثقافة التى اتقنتها خديجة، حتى لنستطيع القول فى ثقة إنه من الطبيعى أن كلا منهما كان يعتبر الآخر غير مثقف.

وراشد يعتبر الحياة عملا ومتعة، وهو يمازج بينهما فى مقدرة بارعة، فلم يكن عجيبا أن يصحب زوجته إلى باريس. كان راشد يريد أن يستغنى بزوجته عن كل نساء العالمين، ولهذا كان يريد فيها كل نساء العالمين.

لم تكن خديجة تتصور أن ترى هذا الذى رأته فى فرنسا. وكان أبعد شيء عن ذهنها أن ترى هذا الذى رأته مع زوجها بالذات. فالأيام القليلة التى قضتها معه فى بيته فى مصر طالعتها منه مهابة لم تر فى حياتها

رجلا يتمتع بها. فحديثه أمر وإن تسربل بالرجاء، ورأيه نهائى وإن تزيا بالتواضع. نوع من المهابة لا يعرفه إلا صاحب الموهبة الكبيرة التى تجعل صاحبها كبيرا.

وفى الباخرة إلى باريس.

- تعرفين اننى عشت سنوات بلا زواج؟

- نعم.

- كان طبيعيا أن أعرف نساء أخريات.

- مادام قبل الزواج فهذا شأنك.

- طبعا أنا لا أستأذن منك عن شىء صنعته فى الماضى.

فلماذا تخبرنى؟

- لا أريد أن أخفى عنك أولئك اللواتى عرفتهن فى فرنسا.

- أتريدهن أن يكون صديقات لك وأنت متزوج؟

- اسمعى يا خديجة. أنا فى صداقاتى الفرنسية لم أكن أعرف إلا فتيات الملاهى.

- إذن.

- أنا أريد منهن أن يكن تسليتك فى فرنسا.

- إذن.

- سنذهب إلى الأماكن التى يرقصن فيها وسيقبلن على وقد يقبلنني.

- يقبلنك.

- وماذا يهمك؟

- لا أريد.

- كنت أستطيع أن أخفى عنك هذا وأذهب بك إلى أماكن أخرى وأزورهن دون علمك.

- لا بأس فلنذهب إليهن.

- سيصبحن أداة تسلية لك.

- أنت عندى الآن كل نساء العالم، وستجدين أنك عندى كل نساء العالم، وأنا لا أحب أن أعد بأشياء سأنفذها، فانى أحب أن يكون التنفيذ هو الوعد وتحقيقه فى وقت معا.

وكان عند الوعد والتنفيذ.

ورأت فرنسا. رأت منها باريس وغير باريس.

كانت فى خيالها مسرح أحداث الروايات ومعانى حب وحدائق هوى ونسمات قصص لبلزاك ودوديه وفلوبير وغيرهم، وكانت فى أحناء خيالها رؤى مجنحة لا يحيط بها تعريف واضح.. كانت تبدو فى خفى الوعى منها أحلاما. يشملها ضباب، فهى بلا وضوح وتكسوها أستار شفيفة، فهى فى نفسها عميقة ولكن بلا معالم موجودة ولكن بلا تثبيت، سماوية أحيانا لعوبا أحيانا أخرى، أو أرضية مسرفة فى عمق الواقع لما صنعه بها زولا وفلوبير وستندال والآباء الأوائل للواقعية.

ثم رأتها وغاص بها زوجها فى عميق حناياها، فازداد فى عينيها جمالها ولم ترفض نفسها الواقعية فيها. فهى واقعية إن أسرفت فى الفجور فهى تعنى فى الوقت نفسه بتجميل هذا الفجور حتى يصبح نوعا من المتع البشرية التى تلتئم مع طبيعة الحياة فى باريس، لا ترفضها باريس ولا من يزور باريس حتى اذا خرجت عن باريسها هذه أصبحت تهتكا تعافه النفس وترفضه وتحتقر كل من يلم به.

رأت الغوانى التى كن صويحبات زوجها، وقبلن زوجها أمامها فلم تحس لذعة غيرة قبلهن.

لم تحس أن اللواتى يقبلنه نسوة عرفهن، وإنما أحست أن ماضيه هو الذى يقبله، وكانت قد بدأت تحب زوجها فهى تحب أن يرضى عنه ماضيه كما يرضى عنه حاضره، وكما ترجو أن يرضى عنه مستقبله.

والغريب أن فتاة منهن طلبت أن تجلس معها فى جلسة خاصة، كان قد أحسست من لقاء هذه الفتاة بزوجها أنها أقربهن إليه.

وقالت لها الفتاة عجبا:

- أنت زوجته؟

- نعم.

- حقا؟

- وأى عجيب فى ذلك؟

- أردت أن أتأكد.

- أنا زوجته.

- أتعرفين كيف يظل زوجك؟

- أعرف كيف أخلص له.

- هل أنت سخيفة إلى هذا الحد؟

- هل الاخلاص سخف؟

- الاخلاص مفروض، لا يحتاج الرجل أن يكافىء زوجته عليه.

- ماذا؟

- طبعا أنت مندهشة أن تسمعى هذا الكلام منى.

- لا.. أبدا.

- بل أنت مندهشة.

- لنفرض.

- اسمعى.. لقد كنت فتاة زوجك فى فترة من الفترات.

- ربما أدركت ذلك من لقائك به.

إن ما نصنعه فى الكباريه ليس هو الحب، إننا حين نحب لا نهب ه الحب إلا لواحد، وكان زوجك يغيب عنى فترات قد تصل إلى سنة، و ذلك لم أكن أهب حبى لأحد طوال فترة غيابه.



- ولكن.. ؟!

- إن ما نهبه للزبائن إنما هى أجسامنا فقط.. افهمى ما أقول.. أنا أتكلم عن الحب.

- متى كان هذا؟

- لم تتغلب على واحدة من زميلاتى.. أنت فقط التى تغلبت على.

- أتكرهيننى؟

- لم يكن من الممكن أن يتزوجنى فهو شرقى وأنا أعرف ظروفه.

- أشكرك.

- أتعرفين كيف تحافظين عليه؟

- ربما.

- إن لم تكن لك بضاعة إلا الاخلاص، فأغلب الأمر اننى سأستقبله قبل أن تمر على زواجكما بضعة أشهر.

- الواقع أن هذه هى البضاعة الوحيدة التى أعرفها.

- اذن فسأعلمك.

وعلمتها...

لقد رأت باريس وتعلمت فى أهم جامعات الحياة على أعظم أساتذة الحب والمتعة ومعرفة الرجال.

ولم يكن ما رأته من باريس وحدها هو حصيلة علمها. إنما ما رأته من زوجها كان أعظم، هذا الرجل المهيب الذى سمعت عنه فى فترة الخطبة أن رجال المال العتاة لا يخشون أحدا فى البورصة قدر خشيتهم منه. هذا الرجل الذى استطاع بهيبته الذكية الخارقة الذكاء أن جعل حمزة البلاشونى وكيل أعماله فى الدائرة الزراعية رجلا فى غاية الأمانة. كان هذا الوكيل كما سمعت عنه يقول ان الانسان حين يسرق أى صاحب مال يعرف أنه قد يفصل من عمله، فإن كان صاحب المال قاسيا غاية فى

القسوة فقد يذهب به إلى السجن. أما مع راشد بك فلا يعرف أى مصير ينتظره، فهو خليق أن يصنع به كل ما لا يتوقعه أحد.

راشد هذا ينكشف فى ملاهى باريس عن هذا الشخص الذى يستطيع فى مقدرة فائقة أن يجعل كل لحظة معه متعة حتى يصبح الجالسون والجالسات جميعهم وجميعهن مغمورين فى فترة من الحياة مليئة بالحياة، تلفهم سعادة غامرة تزلزل أعماق أعماقهم فيزداد غوصهم فى لحظاتهم لا يريد أحد منهم أن يفكر فيما كان يصنع بأمسه، أو فيما قد يصنعه به غده. وراشد هو روح هذه الغمرة الطاغية من الامتاع، وهو الينبوع، أو هو إن شئت الشلال الهادر بالاسعاد، وهو فى الوقت نفسه يستطيع أن يجعل كل فرد من الموجودين يعتقد أنه هو لا راشد سبب هذه السعادة وهذا الامتاع. كيف استطاع هذا الرجل المهيب أن يكون خبير متعة لا يدانيه فى خبرته المتخصصات من فتيات الملاهى فى باريس أو أصحابهن.

وتومض فى ذهن خديجة فكرة تعمل فيها النظر وتوشك أن تؤمن بها، إن معرفة الانسان كيف يكون سعيدا وكيف يعتصر لحظات السعادة اعتصارا لا يبقى من رحيقها على قطرة، موهبة لا تتأتى إلا لعبقرى يعرف كيف يعيش.. ويعرف من مسالك الحياة فى جدها ولهوها ما لا يعرفه أبناء الحياة مجتمعين.

والذى لا تعرفه خديجة أن راشد ترك فى مصر مشكلة يضيق بها أشد الضيق تهدد قدرا من ماله، ولكنه مع ذلك أقنع نفسه بأنها مسألة هينة ميسورة وأنها لا تستحق حتى أن يؤخر سفره من أجلها.

لقد اغتلاه صديق له فى عشرة آلاف جنيه.

والذى لا تعرفه أيضا أن سبب اغتيال صديقه لهذا المبلغ هو زواجه منها ومعرفته لسيدة من سيدات مصر لها أهمية كبرى فى المجتمع

المصرى. والذى لا تعرفه أيضا أنه فجع فى صديقه وفى ثقته به فجيعة إن لم تزد على فجيعة المال فهى تستوى معها.

ولكن أهذا الحديث يناسب لحظات المتعة التى يعتصرها راشد ويسقيها صرفا غير مشوبة لزوجته الحبيبة خديجة. سننسى كل هذا الذى يضيق به راشد ونتيح له ما اتاحه لنفسه من شهور صاخبات بالهناء فى ربوع فرنسا جميعا.

وعرفت خديجة عن زوجها شيئا لم تكن تتوقع أن يتخلق به. فهو لا يلعب القمار مطلقا. قد يشرب مع الشاربين ولكنه لا يقرب مائدة القمار.

- ولكنه تضارب فى البورصة.

- البورصة خبرة وبعد نظر مالى ولا يصاب فيها الانسان إلا اذا حدثت أشياء لم تكن فى الحسبان، ولكن القمار تسليم أموالى كاملة ليد غير أمينة ولا مخلصة ولا صديقة وهى أيدى الحظ. أنا لا أقبل هذا لكرامتى ولا لثقافتى ولا لعقلى.

- فهل المقامرون جميعهم أغبياء؟

- بل إن كثيرا منهم أذكياء.

- فمالهم يقامرون؟

- لقد أخطأوا الطريق إلى المتعة فتلمسوها على مائدة القمار، أما أنا...

- لا تكمل.. لقد رأيت.. نعم إن أحدا لا يعرف طرق المتعة كما تعرفها أنت.

- ولكن هناك شيئا لم تقله.

- وهو؟

- وهو اننى مع كل هذه المتع ظللت لا اهب نفسى إلا لك.

- وهذا حق أيضا.


٣

لماذا يتوقف العقل عند بعض الناس وينصرفون تصرفات حمقاء مع أنهم من ذوى العقل الراجح الذى استطاع أن يمكن لهم وينزلهم منزلة محترمة عند الناس.

لو أن أحدا سأل زكريا باشا حسام الدين على سبيل الاستشارة: ما رأيك فى زيجة الزوج فيها فات الخمسين منذ ست سنوات، وهو يحث الخطى نحو الستين، والزوجة فيها تمشى الهوينى إلى العشرين من عمرها لم تكملها؟ لكان جوابه متسما بالعقل والرزانة وبعد النظر. فالمسألة لا يختلف فيها عقلان على شيء من الرجاحة أو على الأقل لا ينعمان بالغباء الشديد.

ولكن العجيب أن زكريا باشا حسام الدين هو نفسه تزوج الآنسة سهير ممدوح كريمة ممدوح عزت باشا، أما زكريا باشا فهو مستشار فى محكمة الاستئناف عرف بعلمه الواسع بالقانون، بل عرف أيضا بحبه للأدب، وكثيرا ما كانت أحكامه قطعا أدبية يتغنى بها المحامون خاصة إذا صدر الحكم فى صالحهم. وهو موسع عليه فى الرزق واسع الأفق عميق النظرة ولهذا لم يكن عجيبا أن يصبح وزيرا، وقد سر بهذا

لأنه كان يفكر منذ زمن أن يترك القضاء الجالس إلى القضاء الواقف. ولعله فى ذلك تأثر بالقصة التى تروى عن أحد مشاهير المحامين فى فرنسا، وكان ابنه يعمل فى القضاء، وكانت سمعة ابنه أيضا عظيمة. فقد عرف عنه أنه من أحسن القضاة. وفى يوم سأل أحد الصحفيين المحامى:

- لماذا تعمل أنت فى القضاء الواقف، بينما يعمل ابنك فى القضاء الجالس:

فأجاب المحامى الذكى:

- لو استطاع ابنى الوقوف ما جلس.

وأغلب الأمر أن الأب كان يريد ابنه أن يعمل معه فى المكتب الكبير ليظل محتفظا بمكانة المكتب بعد وفاته، والراجح أن الابن كان يفضل العمل فى القضاء بطبيعة مواهبه. أيا ما كان الأمر فالمؤكد أن زكريا باشا تأثر بهذه القصة وأراد أن يقف عن كرسى القضاء ليصبح محاميا واثقا من عمله القانونى ومن لغته فى وقت معا.

وهكذا جاء تعيينه فى الوزارة خير طريق يخرج منه إلى مقاعد المحامين، كان زكريا باشا قد تزوج فى أول حياته نعيمة هانم شهاب بنت مجدى باشا. وقد أنجب منها ابنهما عدلى.

ولكن زكريا باشا كان يحب النساء، وكان بارعا فى الحصول عليهن، والطريق يجمع أصحاب القصد الواحد، فلم يكن عجيبا أن يجمع طريق النساء بين الباشا زكريا والبك راشد فكانت صداقة، قوامها الأول وقد يكون الأهم النساء.

ولكن راشد صاحب مصالح كبيرة، والباشا زكريا حين ترك الوزارة إلى المحاماة أصبح يتمتع بنفوذ كبير، وأصبحت الأبواب التى لا تفتح لغيره من المحامين تفتح له، ولراشد عين يقظى كعين الصقر تدرى أين الخير لها. فقضايا راشد تنتقل اذن من تلقاء نفسها إلى مكتب الباشا، وتزداد الصداقة توثقا.

لعلك الآن تعجب ان ذكرت كل شىء عن الباشا أو أكاد ولم أذكر شيئا

عن زوجته الأولى نعيمة هانم شهاب ولا عن زوجه الثانية الآنسة سهير حمدى.

وما كان لى أن اذكر شيئا عن واحدة منهما دون تفصيل لا يقبل الاجمال. فنعيمة هانم شهاب هى الابنة الوحيدة للغنى الشهير مجدى باشا شهاب، وهى سيدة علمها الغنى أن تأمر فتطاع، وليس زكريا باشا بأقل منها أو أدنى حسبا، وإنما تعلقه بالنساء، وعلمه بأنه لاشك سيخونها جعله يسمح لها بأن تأمر فتجاب، وأن تبدو وكأنها هى رجل البيت، وكان ذكاء زكريا ومعرفته أنه آخر الأمر يستطيع دائما أن يفعل ما يريد داخل البيت أو خارجه يجعله يتيح لها هذا المظهر المتأمر الصلب تفرح به هى ولا يخسر هو شيئا.

ولكن شيئا واحد فات زكريا باشا. وما هذا بعجيب، فالأذكياء أيضا تفوتهم أشياء.

لقد استولت نعيمة هانم على ابنهما عدلى منذ ولادته. فهى وحدها صاحبة الشأن فى تربيته، وهى التى تدخله المدرسة، بل انها هى التى اختارت له الكلية التى يدخل إليها، والعجيب أن هذه الكلية لم تكن الحقوق التى تخرج فيها أبوه، والتى تخرجت فيها الغالبية العظمى من وجوه البلاد ووزرائها وحكامها.

لقد اختارت له كلية الهندسة، وقد نشأ عدلى فكرة من أمه، وخطرة منها، واشارة من يدها، فهو لا يعرف أن يختار ولا يريد أن يعرف. فالذى لم يعرف الحرية يوما لا يفكر فيها، بل لعله اذا منحها تمثلت له شيئا بغيضا لا يطيقه ولا يحتاج إليه. فالاختيار فى الحياة شيء صعب تمثلت له شيئا بغيضا لا يطيقه ولا يحتاج إليه. فالاختيار فى الحياة صعب ومهمة شاقة لا يتعرض لها إلا من لا يتمتع بأم كأم المهندس عدلى التى تختار له كل شيء يتعلق به، وكل طريق ينبغى له أن يسير فيه.

وحين تخرج عدلى فى كلية الهندسة اختارت له نعيمة هانم زوجته، وتزوجها وكان عدلى على غناه دميم الخلقة، وأصبح بفضل السيدة والدته كريه الخلق ضعيفا تافها، وحين تزوج وانسلخ كيانه عن كيان أمه

فى السكن وخلا به وبزوجته بيت تجلى على حقيقته البشعة أمام زوجته، انه لا يجيد فى الحياة إلا أصناف الطعام فما كان له فى بيت أبيه بعد أمه إلا الطاهى يلازمه فتعلم عنه أصول الطهى حتى أجادها، وأحس بالرضاء عن نفسه واطمأن أنه صاحب موهبة، وسبحان رب العرش فى علياء سمائه. يهب لكل عبد من عباده مهما يكن تافها شيئا تطمئن إليه نفسه أنه يملك ما لا يملكه الآخرون.

وربما كانت هذه الموهبة بالنسبة لزوجته فى الأيام الأولى من زواجهما مثار ضحك ومزاح. ولكن ويل للزوجة وللزوج معا اذا تبينا أن الضحك والمزاح إنما هما جد كل الجد. وأن عبقرية المهندس ليست فى شىء إلا فى طهو أصناف الطعام.

ضاقت الزوجة راوية بزوجها أشد الضيق، ولما كان لابد للضيق أن يتمثل فى عمل، فما هو إلا شهر أو بعض شهر حتى كان عدلى مطية وزوجه راكبتها، يبدو الأمر من النظرة السطحية أن مثله فى ذلك مثل أبيه ولكن وهلة من أنعام النظر سرعان ما تعود بها العين الخبيرة. إن هدوء أبيه عن ذكاء وعن محاولة لاخفاء ما يصنعه خارج البيت. أما هدوء الابن فعن غباء ولأنه لا يعرف إلا أن يكون هادئا. وحلت الزوجة محل الأم ولم يقم بينهما أى خلاف. فراوية ذكية تعرف كيف تبدو أمام حماتها دائما طيعة ذلولا لا تخالف لها أمرا أو ترد لها كلمة فملكت بذكائها الأم والابن جميعا.

وهكذا وقع زكريا باشا فى خطأ لم ينجه منه ذكاؤه المتوقد. وبدلا من أن يكون ابنه جديرا بأن يحمل اسمه أصبح هزوة لكل هازىء وأغلب الأمر أن زكريا باشا أراد لابنه أن يلهى زوجته عنه فيستطيع هو أن ينصرف إلى نسائه ما شاء له الانصراف. فإن زوجته تعرف عنه ميله للنساء، بل لقد حدث بينهما حدث تدافعت أصداؤه فى مصر جميعا يوم أن دعت زوجته سيدات كثيرات فى ليلة شاع فيها الأنس والسرور بمناسبة عودتها من الأراضى الحجازية بعد أن حجت بيت الله وزارت قبر نبيه.

وكان الباشا يوم ذاك فى البيت، ولكنه كان فى حجرته بعيدا عن مجتمع النسوة.

لم تكن نعيمة هانم تعرف أن صديقتها صالحة هى رفيقة الباشا فى هذه الأيام، فلم يكن عجيبا أن تدعوها، وكم كانت المفاجأة صعبة حين تفقدت صالحة فى أثناء الحفل فلم تجدها، فإذا خادمتها مبروكة تشير لها بأصبعها إلى أعلى وتصعد نعيمة هانم إلى حجرة الباشا فتجدها خالية، فتكمل صعودها إلى السطح لتجد صالحة فى أحضان زوجها، واذا بها تصرخ صراخا يتعالى على صوت المغنية فى الطابق الأدنى، واذا بها تخلع حذاءها وتنهال به على معالى الباشا وكان يومذاك وزيرا جديدا. وتصبح القصة حديث مصر جميعا، وتطلق صالحة من زوجها، وتنقطع صلة الباشا بها.

ولكن الباشا لا يستطيع العيش من غير أخرى، ويتعرف فى هذه الأيام على المستشار ممدوح بك عزت، وهو رجل اقترب من المعاش وذهب إلى معالى الوزير يرجوه أن يسعى له أن ينال رتبة الباشوية، وهو فى طريقه إلى مقاهى المعاش.

وممدوح بك عزت رجل تزوج، وهو كبير السن، سيدة مات عنها زوجها، هى السيدة نبوية الباجورى، وقد أنجبت لزوجها فتاة كان عمرها يوم ذهب والدها إلى وزير العدل يدور حول العشرين.

فى غمرة التقرب الذى يسعى به ممدوح بك إلى معالى الوزير دعاه إلى الغداء فى منزله. وهناك رأى الباشا لأول مرة بيت ممدوح بك، ورأى أيضا ابنة ممدوح بك. أما البيت فكسير متواضع يدل على أن سعادة المستشار شريف وفقير، وأما البنت فتدل على أن سعادة المستشار أحسن اختيار زوجته، وأن الله جعل الابنة تشبه الأجمل فى والديها.

راقت سهير فى عين الباشا، ولكن هذه فتاة فى حضن أبيها فلا سبيل إليها أو على الأقل الطريق الذى تعود أن يسلكه لا يصلح معها.. مع هذه الفتاة ليس هناك إلا طريق واحد.

- سعادة الباشا ابنتك سهير غاية فى الجمال.



- لا تنس يا معالى الباشا أن صدور الرتبة منك يوشك أن يكون براءة للباشوية، فأنت الوزير المختص باقتراح الرتب للمستشارين.
- سعادة الباشا أنا أعرف اختصاصاتى كل المعرفة.
- إذن.
- أظن جلالة الملك لا يرضى أن يكون أبو زوجتى بك.
- ماذا.. ماذا قلت معاليك؟
- أنا يا أخى أخطب ابنتك لنفسى.
- هذا شرف يا معالى الباشا .
- ولى شرط.
- أنا تحت أمر معاليك.
- أن يظل الزواج سرا حتى أجد الفرصة مناسبة لاعلانه.

وتم الزواج ونال ممدوح باشا رتبة الباشوية.

لم يكن عجيبا أن يقبل ممدوح بك أو باشا خطبة ابنته، فقد كانت المناصب والرتب ذات شأن أسطورى فى ذلك الزمان، ولكن العجيب أن شخصا فى ذكاء زكريا باشا يخطب فتاة تصغر ابنه بعشر سنوات، من المؤكد أنه ما كان ينصح أى انسان ينتصحه أن يفعل ما فعل، ولكن الانسان دائما يظن انه شىء آخر غير الناس، وأن ما لا يجدر بغيره يجدر به. فزكريا مثلا كان يظن أن شبابه دائم، وأن الجاذبية التى يتمتع به تستطيع أن تعوض سهير عن فتوة العشرين، وأن اللقب والمكانة أهم بكثيرمن تقارب السن.

ولم يكن الأب يسأل ابنته فى شأن زواجها، ولهذا لم تحاول سهير أن تمتنع، فمادام أبوها قد اختار لها هذا فلا راد لارادته، ولكنها فى شبابها المتفتح كانت تعرف الطريق الذى فرشه لها أبوها برتبة الباشوية التى نالها.

وظل الزواج سرا.

شخص واحد كان الباشا يصحبه إلى بيت زوجته الجديدة هو راشد بك برهان. فقد عرف فيه الباشا قدرته الفائقة على سكب حياة كاملة فى

لحظات متعة، وقد كانت السرية التى تحيط بالزواج تجعل الصلة بينه وبين زوجته يحيط بها جو المغامرات الذى كان يحيط بصلاته مع رفيقاته السابقات، وقد كان الزواج يحصن العلاقة اذا هى افتضحت من أن تلوك الألسنة اسمه كما لاكتها فى حادثة الحذاء، وفى أحداث أخرى مشابهة.

أعجب راشد بزوجة الباشا وأعجبت به. رات فيه الشخص الذى تستطيع معه أن تمارس شبابها، وتحس بجمالها الآسر مقدرا عند خبير نساء. وهو وان كان يكبرها فى السن إلا أن الفارق أقل من ذلك الفارق الذى يفصلها عن زوجها.

أحست سهير فى عينى راشد الاعجاب، وكانت تعلم أنه لن يقدم على مغازلتها على مرأى من زوجها، فالزوج لماح الذكاء، وراشد يعرف مقدار لماحيته وذكائه. اذن فلتتقدم هى.

حين انتهت السهرة وحان الموعد لراشد أن يترك الزوجين، قام واستأذن، وصافح الباشا وصافح سهير، واذا بشىء أدرك أنه ورقة تتكور فى يده فيطبق عليها يده.

ويقرأ راشد على ضوء سيارته الداخلى.

«تعال غدا فى الساعة السابعة. الباشا لن يأتى غدا».

ويضع الورقة فى جيبه ولا يتولاه عجب كثير، فقد كان يعلم أنه اذا لم يقم هو بدور العشيق لهذه الزجة الشابة، فسيقوم غيره، ولا بأس به أن يخون صديقه الذى ائتمنه على حريمه. فهو خير ألف مرة من غيره. فقد يكون هذا الغير محبا للظهور وقد يكون شابا فيه رعونة الشباب وزهوه، فيفتضح من أمر الباشا ما ينبغى أن يكن سرا.

فهو اذن يقوم بدور العشيق لزوجة صديقه حماية لعرض هذا الصديق أن تنتاشه السنة حداد، وفى ميدان السياسة يباح كل شىء.

ذهب إلى بيته فى هذه الليلة، فاستقبله بدوى خادمه الجديد بعد أن أحال خادمه السابق على المعاش، فقد كان عم محمدين كما كان يسميه قد بلغ من الكبر عتيا فطلب إليه أن يظل فى البيت يشرف على المآكل

والمشرب ويترأس الخدم دون أن يقوم بأى عمل، وطلب إليه أيضا أن يستقدم خادما له جديدا يقوم على خاصة شأنه ويتولى شأن ملابسه، فكان بدوى.

خلع راشد حلته وألبسه بدوى الجلباب، واستلقى راشد على سريره.. لقد بدأت مغامرة جديدة. لم يكن إلى ذلك الحين قد رأى خديجة، بل انه لم يرها إلا بعد ذلك بحوالى عامين استمرت فيهما علاقته بسهير، وطبعا لم يعرف الباشا شيئا، فكان كثيرا ما يقضى مع الزوجة وزوجها السهرات.

* * *

اغتالت البورصة فهمى عبدالحميد صديق راشد اللصيق وجاره فى الأرض الزراعية، وشح المال فى يده، وأوشك أن يبيع عزبته المجاورة لأرض راشد الواسعة، فاستدعاه راشد.

- كم تحتاج؟
- لماذا لا تشترى أنت العزبة؟
- هذا كلام فارغ.
- المبلغ كبير.
- ولكن البورصة لا تستمر على حال واحدة.
- وهى أيضا بلا قلب.
- اذا كانت خانتك اليوم وأعطت غيرك فليس بعيدا أن تخون غيرك فى غد وتعطيك.
- اذا أعطتنى اشترى أرضا أخرى أو أسترد منك الأرض.
- أنا لن أشترى.
- أبحث عن مشتر.
- وأنت لن تبيع.
- غير معقول أن تسلفنى مبلغا كبيرا كهذا.
- اذا لم أحتمل أضمنك فى البنك.
- أريد عشرة آلاف جنيه.

- عندى.
- أبيع العزبة أحسن.
- العزبة تساوى أكثر من هذا.. خذ.

وأعطاه شيكا بالمبلغ، وكتب فهمى كمبيالة مستحقة الدفع عند الطلب وضعها راشد فى حافظة نقوده.

* * *

فى سهرة عند الباشا أو عند سهير أيهما شئت قال راشد:
- معالى الباشا عندى خبر لابد أن أقوله.
- وهل تحتاج إلى مقدمات؟
- ولعل سهير هانم يهمها أن تعرفه أيضا.
- خيرا.
- ربما أصبح من العسير على أن أكثر من زيارة معاليك بعد ذلك.
- اذن فالخبر هام حقيقة.
- أنا أيضا سأتزوج.

واربد وجه سهير هنيهة، ولكن سرعان ما استجمعت قوة الأنثى.
- ألف مبروك.

وقال الباشا:
- نعرفها.
- يا معالى الباشا لو كنت تعرفها لما تزوجتها أنا أبدا.

وقهقة الباشا بصوت مرتفع، وتبسمت سهير، وقال راشد مستطردا:
- تعرف أباها وإلى هنا والمسألة سليمة والحمد الله.
- من؟
- ابنة عثمان باشا فكرى.
- لقد اخترت.
- حقا ياباشا؟
- سمعت عنها كل خير.
- الحمد الله.. معاليك متأكد أنه سمع فقط.

- نعم.. نعم.. لا تخف.. وماذا تريدنا أن نقدم لك هدية لهذا الزواج؟
- معاليك خير من يختار.
- انني أعد لك مفاجأة منذ بضعة أشهر أظن أنها تصلح هدية لزواجك.
- هل لى أن أسأل؟
- الآن أستطيع أن أقول لك.
- عظيم.
- انت تعرف صلتى برئيس الوزراء.
- نعم. ولو انك رفضت أن تشترك فى الوزارة.
- الوزارة بالنسبة لى خسارة كبيرة، فهى تجعلنى أترك الشركات التى أعمل بها.
- ربما كنت على حق.
- اعتذرت عن عدم قبول الوزارة، ولكن تستطيع أن تعتبرنى مشتركا فيها. فرئيس الوزراء يستشيرنى دائما، وقد طلبت أجرا لاستشاراتى هذه.
- طبعا استشارة زكريا باشا لابد أن تكون مكافآتها كبيرة..
- لقد طلبت لك الباشوية.
- حقا.
- وأظن أن اسمك سيظهر فى انعامات العيد..
لم يبق إلا أشهر قلائل، وتصبح راشد باشا برهان.
- اسمح لى أن أقبلك يامعالى الباشا.

* * *

حين ذهبت إلى بيته راح خادمه الجديد ادريس يخلع عنه ملابسه. فقد غضب عم محمدين على بدوى، واتهمه بأن يده طويلة وحرامى فطرده، وجاء بادريس بدلا منه، ولم يكن راشد بك يرد لعم محمدين أمرا يأمره فى البيت، فقد كبر على يديه، وهو يعتبر مربيا له..

لاحظ ادريس أن راشد بك سعيد حالم وان كان لم ينطق بحرف واحد.
وبينما هو يخلع عنه بنطلونه اذا بعم محمدين:

ـ سعادة البك.

وقال راشد فى نفسه بعد بضعة أشهر ستقول سعادة الباشا ياعم محمدين.

ـ نعم ياعم محمدين.

ـ فهمى بك تحت.

ـ الآن!

ـ لما رأى دهشتى قال انه يريدك فى شىء مهم.

ـ اللهم اجعله خيرا.. ألبسنى يا بدوى. آسف أقصد يا ادريس وحين لبس قال لمحمدين:

ـ هات دفتر الشيكات من درج الدولاب يا عم محمدين.

ونزل راشد إلى حجرة مكتبه.

ـ خيرا يا فهمى.

ـ أين الكمبيالة؟

ـ يارجل.. أمن أجل هذا تأتى فى هذه الساعة؟

ـ ان الحديث الذى أريدك فيه لا تصلح له إلا هذه الساعة.

ـ هل رد الدين يحتاج إلى هذه الساعة؟

ـ انى سأرده نعم، ولكن ليس بالطريقة العادية.

ـ ماذا؟

ـ معى ورقة تحتاج إليها.

ـ وهل تريد أن تبيعها لى؟

ـ نحن نعمل فى البورصة. وأنت قلت أن البورصة لا قلب لها.

ـ ولكن نحن لنا قلوب.

ـ نحن أبناء البورصة.

ـ بل نحن أبناء الانسان.

ـ المهم ألا تريد أن ترى الورقة؟

ـ لا بأس.

وأخرج فهمى الورقة وفتحها لحظة، ثم اقفلها وأعادها حيث كانت.

ودارت الدنيا براشد. واستمر فهمى:

- انك على وشك الزواج. وفضيحة كهذه تقضى على زواجك.

- هل هذا معقول؟

- وقد عرفت أنا بتحرياتى أن الباشا تزوج سهير ممدوح. وطبعا الورقة منها.

- أيمكن هذا؟

- تصور لو وقعت الورقة فى يد ابنه عدلى. لقد جن حين أخبرته أن أباه تزوج، وحاول أن يخبر أمه ولكنها فى مرض الموت ولا تعى شيئا.

- أهذا فهمى الذى يكلمنى؟

- تصور أن عدلى ينوى رفع دعوى سفه على أبيه. فكر فى أثر هذه الورقة فى القضية.

- فهمى.. المبلغ لا يهمنى وسأعطيك الكمبيالة ولكن كيف تصنع أنت هذا.

- ألم أقل لك أن البورصة لا قلب لها.

- ولكن أنا أيضا ابن البورصة وأنا.. أنا.

- أعرف ما تريد أن تذكره من شهامتك ولكن الناس معادن. أنت شهم وأنا نذل. أظن أن هذا يوفر عليك كثيرا من الكلام.

- هات الورقة.

- هات الكمبيالة.

- لك حق.. فأنت تظن الناس جميعا مثلك نتبادلها فى وقت واحد.

وتمت المبادلة..

- هل اطمأننت الآن؟

- كنت أستطيع أن أطلب ضعفى هذا المبلغ وكنت ستدفع.

- الآن أعلم انك أنت الذى ستدفع.. وستدفع أضعاف ما أخذت.

- أتظن ذلك؟

- سترى.


٥

وهكذا سافر راشد إلى أوروبا مع عروسه فى ذهنه كثير يشغله. فقد ترك زوجة زكريا باشا نعيمة هانم بين موت وحياة، وابنه عدلى كاد يجن من خبر زواج أبيه، وهو لا يجد من أمه أذنا أو فهما ليبثها هذا الخبر فتقضى على هذا الزواج قضاء مبرما. وهو وإن كان قد تجاوز الثلاثين إلا أنه غبى قاصر العقل هزيل التصرف، وليس ببعيد أن يرفع دعوى السفه على أبيه فجهله يحول بينه وبين معرفة هزل هذه القضية وعدم جديتها. وكل ما يعرف عن أبيه أنه زوج أمه الذى يطيعها فى كل شىء، ولو كان على شىء مهما يكن هينا من الذكاء لعرف أن أباه لا يطيع أمه إلا فى تافه الأمور. فلو قد فكرت أن تتعرض لآرائه الفقهية أو السياسية لكان له معها شأن آخر.

وليس راشد بالذى يفكر هذا التفكير جمعيه فى شأن زكريا لمجرد الاهتمام بأمره، وإنما خشى أن يشغله شأن ابنه هذا عن السعى إلى الباشاوية التى وعده بها.

وهو يخشى أيضا أن تؤلبه سهير عليه، فقد قطع علاقته بها تماما منذ ذلك اليوم الذى أعلنها فيه أنه سيتزوج. وللسيدات إلى هذه الأمور

مداخل لا يلج منها سوى ذكائهن.

ولكنه مع كل ذلك كان يفضل السفر. فهو لا يحب أن يظهر أحدا على اهتمامه برتبة الباشوية، ثم لا تأتى، وهو يفضل أن يعرفها الناس من المرسوم لا منه. وأن له أصدقاء خلصا وهو يخشى - وإن كان يعرف نفسه - أن تفلت منه كلمة تنبىء عما يدور بنفسه من آمال.

وقد حرص راشد ألا يخبر زوجته بما ينتظر. فالرتبة عند السيدات لها مكانة خاصة، وهو يخشى ألا تأتى فتهتز مكانته فى نفسها.

لم يستطع شىء من هذا جميعه أن يحول بينه وبين أن يعيش الساعة فى فرنسا ساعات مكثفة من البهجة يشيعها من نفسه إلى قلب زوجته وإلى قلب كل من يشاركهما فى لياليهما أو فى بياض نهارهما.

فهو من أولئك القلة التى تعرف لكل لحظة حقها، فلا يعدو التفكير على المتعة ولا تعدو المتعة على العمل.

وهو أيضا كان يعلم أن ليس فى القاهرة شىء يستطيع أن يفعله. فالانتظار وحده ليس عملا.

أما عن فهمى فإنه لم يبت ليلته التى زاره فيها ليعرض سفالته إلا وقد أعد له عدته. وعرف تفاصيل ما سيفعله بشأنه. ولم يكن الموعد الذى حدده قد جاء بعد.

حين عاد راشد إلى القاهرة فى أوائل سبتمبر كان الباشا قد أعلن زواجه من سهير، بعد أن ماتت نعيمة، وأصبح الباشا يخرج مع زوجته فى كل مكان.

وكان عدلى قد رفع د عوى السفه على أبيه فجعل من نفسه أضحوكة بين الناس. فإن كان لابد من دعوى ترفع فقد كان الأجدر أن يرفعها الأب العالم الذكى على ابنه الغبى الجاهل.

وكان زكريا باشا كبيرا كشأنه. فاكتفى بارسال أصغر محام فى مكتبه، وهو يعلم أن مهمة المحامى غاية فى السهولة واليسر. ولم يكن عجيبا ألا يفكر زكريا باشا فى حرمان ابنه من الميراث وما كان أيسر من هذا بالنسبة إليه، ولكن لعله بروح القاضى العادل، والفقيه القانونى، قد أدرك أنه هو الذى أهمل شأن ابنه، وجعل منه هذا السخيف الذى

أصبحه، بما هيأت له أمه من مجالس فارغة مع نسوة جاهلات، وما هيأه له طاهي المنزل من ثقافة مطبخية.

ولم يشأ زكريا أن يعاقب ابنه على خطأ ارتكبه هو نحوه، ويعتبر نفسه مسئولا عنه.

وبقدر ما كانت أحاديث القاهرة تسخر من سخافة عدلى بقدر ما كان تكبر موقف أبيه وتعاليه عن الصغار، وعن أن يجعل نفسه فى كفة ميزان مع ابنه السخيف.

كان العيد قد اقترب، وذهب راشد إلى القرية، ومعه زوجته، وراح يوزع على الفلاحين الملابس والنقود مضاعفة هذا العام، مدعيا أنها من أجل زوجته، فانطلقت الألسنة تدعو لها وله بكل هناء وإن كان هو فى خبىء نفسه يدبر لأمر ويعد له بهذه المنح عدته.

ظهرت أسماء الذين أنعم عليهم برتبة الباشوية وانفجر الخبر فى البلدة حيث أحب راشد أن يكون. ففى الريف تصبح الأفراح والأحزان أكثر جلاء ووضوحا من المدينة.

فى الريف ينطلق الفرح فيصبح فى كل بيت. توشك تراه فى الشمس وفى القمر وفى الزرع وعلى وجوه الأنعام مع زغاريد النساء ورقص الرجال وقرع الطبول وهتاف المزمار.

وأعاد راشد المنح مرة أخرى بمناسبة الباشوية، وركب سيارته مع زوجته ليقيد اسمه فى دفتر التشريفات، ثم ليذهب بعد ذلك فورا إلى زكريا باشا ليشعره أنه يعرف الفضل لأهله، وأخبره زكريا باشا بالأسماء التى ينبغى أن يمر بها ليقدم الشكر مثل رئيس الوزراء ورئيس الديوان وكبير الياوران وغيرهم.

لم يمكث الباشا راشد فى القاهرة أكثر من يومين، ثم أخبر خديجة أن لديه عملا فى القرية، وقد يضطر أن يغيب بها يومين. ولم تكن الزوجات إلى ذلك الحين يناقشن رغبات أزواجهن. وخديجة لها من ثقافتها ما يجعلها تعرف تماما متى يجمل بها أن تسأل، ومتى ينبغى لها أن تتدخل. فهى تدرك أن أعمال زوجها ليست مجال أسئلة لها أو تدخل..

وهكذا أخذ حضرة صاحب السعادة راشد برهان باشا طريقه إلى قريته.


٢

فى زيارته الأولى سأل.

ـ متى نجمع القطن؟

ـ بعد بضعة أيام.

ـ والعزب التى تجاورنا.

ـ بعدنا.

ـ كلها؟

ـ كلها: نحن أول من زرعنا القطن فى الجهة.

ـ عظيم.. سأحضر معكم الجمع هذا العام.

ـ نزداد شرفا يا سعادة الباشا.

فى زيارته الثانية ركب راشد حصانه، وراح يمر بأرضه . البلاشونى وكيل زراعته وبدا وكأن راشد أخطأ الطريق، حدود الأراضى المجاورة وسأل حمزة:

ـ كم فدان قطن هذه؟

ـ ثلاثمائة فدان.

- ولم يعقب.

وحين عاد إلى البيت قال لحمزة:

- أريد متولى الفراش.

- سعادتك تقصد متولى صاحب الفراشة.

- نعم.

- سعادتك تنوى أن تقيم لنا ليلة بمناسبة الباشوية؟

- ستكون ليلة وأنت بطلها.

- يا ليت ياسعادة الباشا لو كنت أعرف أغنى لغنيت للصبح.

- ستغنى ياحمزة.. ستغنى للصبح. ولكن بأصوات أخرى.

- سعادتك تتوقع أن أفهم؟

- مؤقتا المطلوب ألا تفهم.

وسأل متولى صاحب الفراشة.

- كم كلوب عندك؟

- أمرك ياسعادة الباشا.

- أريد ثلاثين.

- أمرك سعادة الباشا.

- خذ.. اشتر ما ينقصك.. وحين تنتهى الليلة خذها لك.

- ربنا يطيل عمر سعادة الباشا.

- متى تكون مستعدا؟

- عندما تأمر.

- الليلة.

- أمرك.

وقال لحمزة.

- أريد كل نظار العزب.

- أمر سعادة الباشا.

- بعد ساعة.

- أمرك.

- ومعهم الخولية.

- أمر سعادة الباشا.

قال لهم راشد:

- أريد أطفالا وشبابا ونساء فى سن جمع القطن.

وقال حمزة:

- كم تريد؟

- لو كنت أريد عددا ضئيلا ما جمعت كل هؤلاء الرجال. أريد كل من تستطيعون أن تجمعوه. وأريد عربات نقل وجمالا وحميرا أيضا بقدر ما تستطيعون.

ونظر الرجال بعضهم لبعض، وقال أحدهم:

- القطن عندنا لا يستحق الجمع الآن.

- لا عليك ياحاج جودة. ستعرف كل شىء فى حينه.. أنا أعرف أن أحدا لم يفتح فى الجمع حتى الآن.. كم نفرا تستطيع أن تجيئنى به.

- أمرك. أستطيع أن أحضر أكثر من مائتين.. فالجميع الآن لا يصنعون شيئا.

- وهذا بالضبط ما قصدت إليه.

- وهو كذلك.

وراح كل ناظر وكل خولى يدلى بعدد الأنفار التى يستطيع جمعها. واكتمل العدد. ألفا ومائتين. أدرك الباشا أنهم لن يتجاوزوا الألف وهذا ما أراد.

- متى تستطيعون أن تحضروهم؟

- إن أردت الآن.

- أنا فعلا أريدهم الآن.. ان انتظرنا إلى الغد فشل كل الترتيب الذى أصنعه.

- أمرك.

- متى تحضرون؟

نظر الحاج جودة حوله لحظة ثم قال:

- صفار شمس ياسعادة الباشا.

وأمنت الأصوات على الموعد.

قبل أن تغرب الشمس كانت الأرض الواقعة أمام سراى راشد باشا برهان تغص بالناس.. منهم من جاء تلبية للطلب، ومنهم من جاء ليعرف السر وراء هذه الدعوة الغريبة للناس والأنعام جميعا. وفى نفس الوقت كان الباشا مجتمعا مع حمزة ونظار العزب فى حجرة مقفلة لم يسمح لغيرهم بدخولها. وسأل الباشا حمزة:

- هل خفر العزب معكم؟

- طبعا.

- هل معهم أسلحتهم؟

- طبعا.

- كم بندقية عندنا؟

- كان عندنا عشر بنادق، اثنتان منهما الآن فى الاصلاح.. عندنا الآن ثمان.

- لا بأس. ما سأقوله الآن سينفذ دون أن يعرف أحد فى الخارج شيئا إلا وأنتم فى المكان الذى أحدده.

- أمرك.

- ستأخذون الأنفار جميعا إلى أرض فهمى عبدالحميد.

ونظر الرجال بعضهم إلى بعض وأكمل الباشا:

ـ فى ساعة زمن سينزل الجميع الغيط، مع كل جماعة كلوب، وحول الأرض الخفراء مع بنادقهم.. يهددون فقط. لا أريد عنفا، وقد تكتمت الخبر، وأعتقد أن أحدا لن يأتى إليكم وفهمى عبدالحميد غير موجود. وحين يأتى ستكونون قد جمعتم القطن. الأكياس يا حمزة التى أتينا بها لقطننا أنا اشتريتها لهذه العملية.

ـ أمرك ياسعادة الباشا.

ـ تخرجون وتأخذون الأنفار دون أن تقولوا إلى أين حتى يجدوا أنفسهم أمام القطن ياحمزة. هذا أجر مضاعف للأنفار ، وكافىء كل من يبدى همة.

الناس فى القرى لا يسمحون لفرصة كهذه أن تمر دون أن يعرفوا أعماق الأسرار التى تقف وراءها انهم واثقون أن هذا المشهد الذى يرون سيصبح تاريخا يتحاكون به ويجعلون منه على الأيام بصمة كعام الفيل الذى خلده التاريخ. فكل حدث ضخم فى القرية عام فيل. وتراهم يقولون فى سليقة مواتية وكان هذا قبل حكاية الباشا وفهمى عبدالحميد بأسبوع أو بعدها بشهر. وهكذا ستصبح علامة زمنية يرويها أب إلى ابنه وابن إلى حفيده.

فهيهات هيهات أن يتركوا الجموع تذهب ولا يقصوا أثرها ويتبعوها إلى حيث تذهب، وإن كانت جهنم هى المقصد والمتجه.

وهكذا تجمع مئات آخرون حول الجميعة الذين أنافوا على الألف، وساروا يتبعهم كل من رآهم حتى اذا بلغوا أرض فهمى وقف حمزة وألقى أوامره فى حسم وفى اختصار، وتفرقت الأضواء، وأحاط الخفراء بالأرض وتسلم كل نفر خطا وبدأ جمع القطن. ووقف المتفرجون لحظات وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، ولكنهم ما لبثوا أن



تبينوا مقدار الجرأة والابتكار فى هذا الذى يحدث، وهم مطمئنون أن سندهم الباشا. فما لهم لا يشاركون فيما أخذ فيه الجميعة، وتصبح روايتهم بعد ذلك مؤيدة بأنهم جمعوا مع من جمع وتمكنوا أن يجمعوا ثلاثمائة فدان بدأوا فيها بعد أذان المغرب وانتهوا منها وصلاة العشاء مازالت حاضرة.

حتى السرقة فى القرى توقت بأوقات الصلاة. وهكذا نستطيع أن نقول انه حين وجبت صلاة الفجر كان قطن فهمى عبدالحميد فى مخازن راشد باشا برهان مستقرا وكأنه فيها منذ أيام طويلة.

* * *

أصبحت هذه القصة أحدوثة المديرية كلها يتناقلونها بشىء كثير من الدهشة. فراشد حسن السمعة لم يمد يده فى حياته إلى ما ليس له، وفهمى عبدالحميد ليس فوق مستوى الشبهات، وهكذا سرعان ما ابتدعت الاشاعات قصة عن السبب وصدقها الناس.

فالناس لا يحكمون على أحد من حادثة واحدة، وإنما هم ينظرون فى ماضيه جميعا، ويقارنون ويقدمون الحيثيات ثم يصدرون الحكم.

لقد أكل فهمى عبدالحميد على راشد مبلغا من المال وأبى أن يرده إليه. فلم يجد راشد أمامه سبيلا إلى هذا. فهو لا يحب أن يستلب أحد أمواله مادام هو لا يحب أن يستلب أموال أحد.

وهكذا أصبح فهمى عبدالحميد المجنى عليه ظالما لا مظلوما ولا اشفاق عليه. فهو الذى صنع اسمه هذا، وسيرته تلك بين الناس. فليس عجيبا أن يكون هذا هو حكم الناس عليه. وأن من يقدم على ما أقدم عليه نحو شخص أكرمه وأقال عثرته وحفظ عليه ماله وأرضه، ليس غريبا عليه أن يكون اسمه بين الناس غير كريم. فهذا الاسم يتكون عند الناس من أشياء صغيرة غاية فى الصغر. يأتيها ذو النفس اللئيمة من غير قصد ويستقبلها الناس فى كثير من الأحيان

بنوع من النفور قد لا يعرفون سببه. وليس غريبا أن تسمع من الناس عن فلان منهم أنهم لا يرتاحون إليه، وربما عجزوا عن ابداء الأسباب إن سألتهم أسبابا. فهمى عبدالحميد هو هذا الفلان من الناس عند الناس.

عرف أهل المديرية مما تواتر عن هذه الحادثة أن راشد فى القرية، فتوافدوا إليه من كل البلاد يهنئونه بالباشوية، ويسخرون من فهمى عبدالحميد، وربما حاول أصدقاؤه المقربون أن يعرفوا منه ما دعاه إلى ما فعل، ولكنه كان يقول فى حسم:

- وهو يعرف وهذا يكفى.

وقصد إلى بيت راشد باشا مدير المديرية والمأمور والحكمدار. وقال الباشا المدير:

- جاءتنا شكوى من فهمى عبدالحميد.

وقال راشد فى نوع من التجاهل:

- خيرا.

- لا تحاول معنا تجاهلا.. فقد حققنا الشكوى.

- مم يشكو؟

- المهم أن كل رجاله رفضوا أن يشهدوا ضد أى أحد من رجالك فأشجع من فيهم الذى قال ناس لا نعرفهم.. وأغلبهم قال ليسوا من الناحية، ولا من الجهة.

- مازلت لا أعرف عم تتحدث ياسعادة الباشا.

- والله وأنا الآخر لا أعرف عم أتحدث.. اطلب لنا القهوة يا سعادة الباشا.

- إنها عادة تأتى دون أن أطلبها ياسعادة الباشا. شرفت.. شرفت ياسعادة الحكمدار وأنت سعادة البك المأمور.

- انتهزنا الفرصة لنهنىء سعادتك بالباشاوية.
- أكرمك الله ياسعادة الحكمدار.. إن شاء الله نهنئك بها قريبا.
والتفت إلى الباشا المدير:
- سعادة الباشا يحب النارجيلة.
- وقد أحضرتها معى فى السيارة.. أتأمر باحضارها.
- لا ياسعادة الباشا. فى هذه المرة ستشرب فى نارجيلة أخرى، ومعها دخان استقدمته لسعادتك خصيصا من تركيا..

وصفق راشد باشا وأصدر أوامره، وما لبثت أن جاءت شيشة ذات مبسم من المرجان وقد أحكم عليها دخان واضح الفخامة. وما هى إلا أن جذب منها الباشا المدير جذبة فإذا هو يقول:

- سعادة الباشا ليس فى مصر رجل مثلك يعرف كيف يحيىّ الناس فى أناقة وترفع.

ويضحك الجميع.

لقد كانت ملاحظة المدير غاية فى الصدق.. فمن يستطيع أن يقول أن مديرا عظيما يرشى بنارجيلة، إنما هى هدية من ناحية الثمن لا تساوى شيئا، ثم هو يقدمها إليه على الملأ. والرشاوى لا تقدم على الملأ.. إنما هى هدية بين صديقين ولا تحمل اى تأويل آخر.. ثم هى هدية تحمل فى طواياها أن مقدمها يهتم بمن سيقدمها إليه ويبحث عما يسره من الهدايا ويقدمها إليه.

ذكى سعادة الباشا الجديد.. ذكى لاشك فى ذلك.

* * *



شهيرة سيدة عجيبة.. انها ابنة عم خديجة وأبوها وجدى باشا عزت. وقد تظن انى أخلط الأنساب فجعلت أخا عثمان باشا فكرى اسمه وجدى باشا عزت، ولو انك سألت واحدا من أبناء هذا الجيل لعلمت أن المدارس فى ذلك العهد العهيد من الزمن كانت تسمى تلاميذها بأسماء تركية غير تلك التى يردون بها إلى المدرسة، ولم تكن هناك شهادات ميلاد فى ذلك الحين.

فوجدى باشا عزت اذن هو أخو عثمان باشا فكرى كما شاءت المدرسة أن تسميه. وان كان عثمان باشا فكرى قد نال الباشوية عن طريق غنى سابق تبدد، فأصبح أقرب إلى الفقر، فإن وجدى باشا عزت نال الباشوية عن طريق السياسة. فقد كان عضوا بالتجمعات البرلمانية التى كانت تسمى المجلس التشريعى أو مجلس شورى القوانين. ولم تمهله الحياة أن يرى مجلسى البرلمان اللذين نبتا عن دستور عام ١٩٢٣ وكانا يسميان مجلس النواب ومجلس الشيوخ.

ولكن وجدى باشا ترك مع ذلك سيرة طيبة، وترك أيضا بقية من مال تجعل ابنته شهيرة تنسلك بشىء من الصعوبة والعسر مع طبقة الأغنياء، إلا أنها كانت تعيش عيشة سمحة لا عنت فيها ولا ارهاق.

وكانت شهيرة تستطيع أن تستغنى باسم أبيها وبما تركه من مال عن تعلقها بأصحاب الألقاب وأصحاب الشهرة. فهى مثلا لم تزر خديجة إلا زيارات نادرة تستر بها واجبات القرابة. فلم يكن راشد ذا شهرة فى المحيط الذى تحيا فيه شهيرة. وابنة عمها لا تمثل عندها إلا أنها ابن باشا، وباشا غير ذى شهرة، بل وغير ذى مال أيضا.

وهكذا لم تجد شهيرة داعيا أن تزورها. حتى اذا نال راشد الباشاوية أصبحت شهيرة لا تترك بيت خديجة، بل أصبحت لا تخفى عنها سرا من أسرارها.

كانت شهيرة تجد متعة فى نطق كلمة باشا، وتحس لها مذاقا فى فمها، وموسيقى فى أذنها، وتكاد تشم لها رائحة فواحة العبير فى خياشيم أنفها. ونفس هذا الشعور من النشوة كان يلفها اذا ذكرت اسما من أسماء المشاهير فى أى متجه تحققت له الشهرة فيه. وانى لأعجب لها، ولاشك انك ستعجب معى أن النساء الشهيرات فى عالم الليل وفى غير ما يشرف المرأة أن تشتهر به كن يثرن فى نفسها نوعا من التوفز حتى اذا تعرف بواحدة منهن اتخذت منها صديقة مقربة توشك لا تفلت يوما لا تزورها فيه أو تتصل بها.

رحبت خديجة بصداقة ابنة عمها الجديدة. والحقيقة أن شهيرة أنيسة الجلسة طيبة الحديث، يمر معها الوقت لا تكاد جليستها تحس به. وقد سعدت شهيرة أن توثق صلتها بجلفدان هانم والدة راشد باشا، وقد كان الجميع يناديها هانم أفندى. كما سمعت ابنها يناديها فى أول هذا الحديث الذى أسوقه إليك.

فكلمة هانم أفندى ذات رنين عند شهيرة، بل انها تجد فى نطقها أنها تختلف عن الأخريات اللواتى لا يعرفن سيدة يقلن لها هانم أفندى. ولا يهمها أن سبب هذه التسمية آت من أن السيدة جلفدان كانت ابنة لاحدى حريم السلطان عبدالحميد، وزوجها لواحد من اتباعه، وقد خطبها زوجها والد راشد من تركيا وشفع له غناه فنسى أصهاره أو أرادوا أن ينسوا أنه ليس إلا فلاحا لا يرقى إلى سماواتهم.

ليس شىء من هذا يقع موقع الأهمية عند شهيرة. المهم أن تقول هانم أفندى. والمهم أن هانم أفندى أحبتها وتجمع الجلسة ثلاثتهن.

- ألا ترين طريقة لقريبتك هذه شهيرة هانم؟

- ما لها هانم أفندى؟

- لا تريد أن تأتى لنا بمولود؟

وكانت خديجة تحب حماتها حبا طاغيا. فهى قد تركت لها شئون المنزل تصنع فيه ما تشاء، وقد قدرت لها خديجة هذا، فجعلت اشارتها أمرا. فهى تنفذ لها أوامرها قبل أن تنفذها لزوجها. ولهذا لم تكن أحاديث حماتها عن الانجاب تثير فى نفسها شيئا ما يغضب له النساء عادة اذا طالعتهن الحموات بمثله. وعلى كل حال فقد كان لها مع حماتها فى يومها ذاك شأن آخر.

- وهل بيدى هانم أفندى؟

- كل شىء بأمر الله هانم أفندى.

- ولكن يا بنتى يا شهيرة إنها لا تريد أن تسمع كلاما فى هذا الشأن.. علينا أن نحاول..

- نعم فى هذا أنت محقة هانم أفندى.. ماذا جرى لك يا خديجة.. لابد أن نحاول.. أعرف داية..

- اسكتى يا شهيرة.

- ألا تريدين حتى أن تسمعى؟

- هانم أفندى.. انى حامل.. وأنا أخبرك الآن قبل أن أخبر الباشا.

وسقط الصمت على الحديث المتحمس، وارتسمت ابتسامة على فم خديجة، واندلعت دهشة وفرحة فى عينى جلفدان وانعقد لسان شهيرة.. لحظات.. بدت بطيئة ولكنها لحظات، ثم انتفضت هانم افندى إلى دولاب نقودها وقبضت منه قبضة وصاحت:

- يا بنات.. يا فهيمة يا سنية يا حبيبة..

وتقاطرت الخادمات إلى السيدة الكبيرة.

- خذن.. خذى أنت وأنت وأنت.. زغردن زغردن جميعا.. افتحن الشبابيك.. افتحن الشبابيك. أنا آمر بهذا.. افتحن الشبابيك وزغردن ولا تتوقف منكن الزغاريد حتى يأتى الباشا ويسمعها منكن.

وأخذ الضحك السعيد بمجامع خديجة، وأحست شهيرة لأول مرة أنها لا تجد شيئا تقوله أو تفعله.

وخرجت جلفدان هانم من الحجرة، وراحت تصدر الأوامر أن يبلوا الشربات وطلبت محمدين، وأمرته أن يفرق عيشا ولحما عند مقام السيدة زينب وسيدنا الحسين.

وقالت شهيرة لخديجة فى اهتمام:

- جاءنى عريس.

- من؟

- سامى حسنين.

- ابن خالتك. متى جاء من أوروبا؟

- منذ شهر.

- أخذ الشهادة؟

- في الهندسة.
- وأنت ما رأيك؟
- تريدين الحق؟
- أريد الحق.
- هو بلا شخصية.
- بالنسبة لك ليس هذا عيبا.
- ماذا تعنين؟
- أنت لا تحبين أن يكون هناك رأى بجانب رأيك.
- وهو أيضا فقير.
- وهذا أيضا أحسن لك.
- أعوذ بالله منك.
- أنت غنية وغناك وفقره سيجعل كلمتك دائما هى النافذة.
- دمه ثقيل.
- يخف.
- يعنى.
- توكلى على الله.
- وارتفعت الزغاريد فعرفتا أنها تستقبل الباشا بالبشرى.


٨

انصبت أخبار القطن على فهمى عبدالحميد ترادفها الدهشة والعجب.ولعل بعض الندم ألم به. وسأله الناس فتظاهر بأنه مظلوم وإن لم يبد سببا. خشى أن يختلق سببا فيحل به عقاب آخر، وخشى أن يقول الصدق فيحتقره الناس. لقد أدرك أن راشد قد اصطنع ما ليس من خلقه ليرد عليه تصرفه. لقد انتهب هو أموال راشد، آمنا إلى أن راشد لن يتخذ نفس الطريق ليسترد أمواله.

لم يستطع فهمى عبدالحميد أن يذهب إلى راشد بعد الحادث بفترة قصيرة، وإنما آثر أن يترك الأيام تنسى الناس ما حدث، وآثر أن يشعر راشد أنه انتقم فيلاينه فى الحديث. حتى اذا مر من الوقت ما أراد فهمى أن يمر، ذهب إلى راشد فى بيته فى مصر. فقد حرص ألا يرى رجال راشد ورجاله ذله وانكساره، خاصة بعد أن عرف ما كان من زيارة المدير ورجال الادارة لبيت راشد بالبلدة. وفى القاهرة.

- لم أتوقع هذا.

- لانى عشت عمرى كله أكرمك وأكرم جوارك.

- فلماذا لم تكرم خطئى؟
- أنا لا أستطيع أن أكرم سفالتك. لا اكرام عندى للسفالة.
- كلنا فى الهوى سوا يا سعادة الباشا.
- كذبت.
- حين تستحل صلة غير شريفة بصديق قريب لك تسمى هذا خلقا.
- أنا غير مستعد أن أدافع عن نفسى أمامك.
- ولقد حميتك أن تدافع عن نفسك أمام زكريا باشا.
- لو كنت أعطيتنى الورقة دون استغلالها لجاز لك أن تقول هذا.
- وما البأس أن أستغلها وأنا فى فقرى هذا.
- لقد وقفت إلى جانبك فى فقرك. وأنا لم أطالبك.
- فرصة لاحت لى.
- فرصة قذرة.
- ألا يجوز لى وأنا ابن البورصة أن أستغل ضربة حظ؟
- لقد صنعت أنت هذه الضربة واشتريتها من خادم لى.
- كيف عرفت؟
- الأمر لا يحتاج إلى ذكاء. ولو كنت ذكيا حقا لقدرت ذكاء الآخرين.
- كل منا له أن يبحث عن صالحه أينما وجد.
- ولكن يجب علينا أن نكون على شيء من الخلق.
- يا سعادة الباشا إننا نلعب على مائدة واحدة.
- ربما أكون قد أخطأت، ولكننى أعرف اننى كنت مخطئا وقد تبت..
اننى منذ تزوجت لم أخن زوجتى.
- ولا خنت صديقا لك؟
- رددت خيانة أحدهم ولم أخنه.
- يا سعادة الباشا. لقد خنتك فى مالك، وخنت أنت صديقك فى

عرضه. فلا أعتقد أنك الشخص المناسب للحديث عن الشرف.

ـ أنت خنتنى فى مالى وفى اكرامى لك.

ـ لم تذهب بعيداً عما ذهبت إليه.

ـ أما أنا فقد تبت.

ـ الله وحده يعلم ما فى القلوب.

ـ ولكننا نحن البشر نعرف الظاهر من الأعمال.

ـ ظاهر الأعمال انك استوليت على قطنى بغير حق.

ـ أليس لى حق عندك؟

ـ أمام القانون لا حق لك.

ـ لو كان القانون يعطينى حقى ما لجأت إلى تحطيمه.

ـ وترى هذا عملا شريفا؟

ـ ألم تقترح أنت ألا نتكلم عن الشرف؟!

ـ هذا حقك.. وماذا تنوى أن تفعل؟

ـ أما أنا فقد فعلت.

ـ يخيل إلى أن عملك لم ينته.

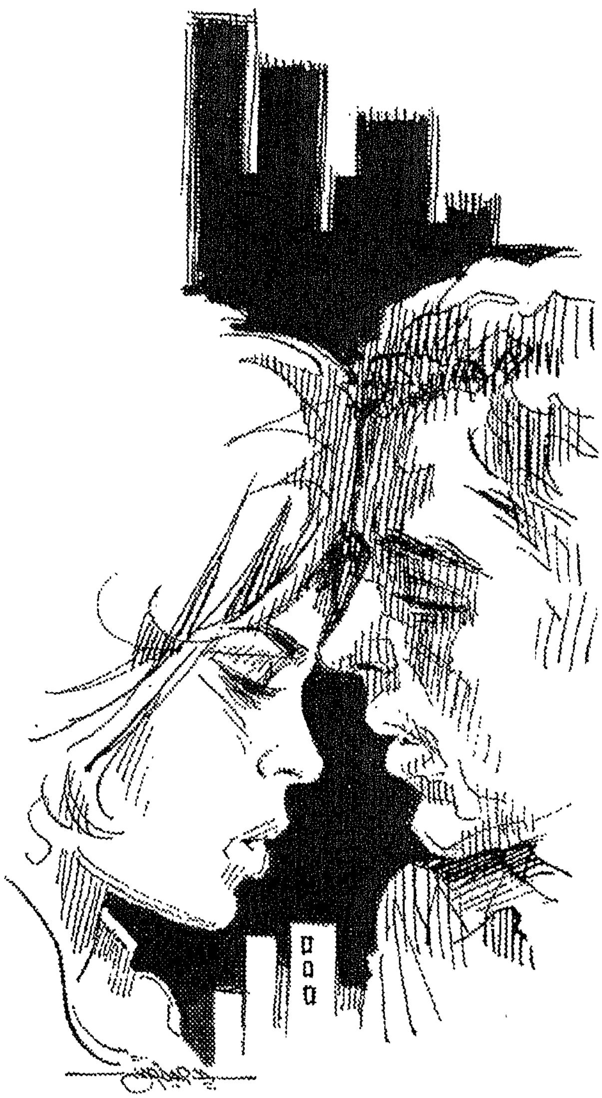
ـ لن أسمح لك بزراعة أرضك حتى استرد مالى الذى عندك.

ـ اكتب لك كمبيالة جديدة.

ـ معنى الكمبيالة اننى أقبل تسليفك وأنا لا أقبل.. فى هذه المرة لابد أن أسترد أموالى نقودا مثل التى أعطيتها لك.

ـ ولكن.. ولكن هذا مستحيل.

ـ ولماذا.. لقد غطيت خسارتك بالمبلغ الذى أعطيته لك، ثم كسبت من أسهم الشركة الخديوية مبلغ عشرين ألف جنيه، وكسبت صفقة اتحاد البنوك ثلاثين ألف جنيه.. لو لم أكن أعرف انك تستطيع رد أموالى لبحثت عن طريقة أخرى لاستردادها.



- تعرف عني كل شيء.
- لقد قلت الآن أننا نلعب على مائدة واحدة.
- نخصم ثمن القطن وأعطيك الباقى لك.
- أى قطن؟
- راشد بك.
- باشا اذا سمحت.
- راشد باشا. أتنوى..
- لقد نويت.
- وهل هذا معقول؟
- وهل ما فعلته معقول؟
- إن لى أولادا.. هذا حرام عليك..؟
- وهل لابد أن يكون لى أولاد حتى أنال حقى، وعلى كل حال ياسيد اطمئن. فإن ابنى فى الطريق.
- فمن أجل خاطره اذن ياسعادة الباشا ارحمنى.. أعرف انك قادر، ولكننى أعرف أيضا انك تعفو اذا قدرت.
- بشرط واحد.
- لقد أحضرت معى المبلغ.
- اسمع يافهمى. سأقبل المبلغ الذى أحضرته على أن ننسى كل شىء حدث بيننا فى هذه الفترة.
- هذا شرط أبحث أنا عن تحقيقه اذا رفضت أنت.
- وهو كذلك.. هات المبلغ.
- شكرا ياسعادة الباشا .. ألف شكر.


٩

جاء المولود الأول لراشد باشا، وقد حلا له أن يسميه اسما عربيا عريقا، فسماه أسامة، وحاولت هانم أفندى أن تعترض لتخلد اسم أبيها نيازى، ولكنها وجدت من ابنها اصرارا، وقد صاحب مجىء أسامة فرح كبير فى الأسرة استبشرت خديجة واستبشرت به هانم أفندى، ولم يجد راشد باشا بأسا أن يستبشر به أيضا. فقد تحدد يوم زواج شهيرة من ابن خالتها سامى حسنين. وكان اليوم محددا بعد ميلاد أسامة بعشرة أيام، وقد تصادف أن تم تحديد الموعد والميلاد فى يوم واحد.

وفى المساء، وبعد أن استطاعت خديجة أن تسمر مع المهنئين، وهى فى سرير ولادتها قالت شهيرة:

- والله لا أتزوج حتى تستطيعى أنت حضور فرحى.

- هل جننت يا شهيرة؟

- أكون مجنونة لو فعلت غير هذا.

وهكذا تجدد تحديد الموعد على يد الطبيب الذى أشرف على ميلاد أسامة. فالأطباء فى ذلك الحين كانوا يشرفون على الولادة ولا يقومون بها. فإنه لا ينبغى للسيدات أن يلدن بمشهد من رجل حتى ولو كان طبيبا. فكان الطبيب يحضر الولادة جالسا مع الرجال، وكانت الداية التى يرشحها الطبيب هى التى تقوم بعملية الولادة نفسها. فإذا حدث خلل يستدعى تدخل الطبيب فإنه حينئذ يتولى بنفسه العمل مباشرة. فقد كان ذلك الجيل لا يؤمن بأن الوقاية خير من العلاج مادامت هذه الوقاية ستحطم عرفا عريقا كانكشاف الحريم على الزوج. وقد كان راشد جديرا أن يحطم هذا العرف لولا أن الطبيب طمأنه أن الولادة ستكون طبيعية، وأنه لا يوجد ما تخشى عواقبه.

لم يكن راشد من هؤلاء الذين يحبون أن يحطموا التقاليد بمجرد تحطيمها، وإنما كان يحطمها اذا تعارضت مع منطق الأمور ومعقوليتها، وأن قضاء شهر العسل فى أوروبا والطريقة التى أظهر بها زوجته على باريس لتدل على أنه لا ينتمى لهذا الجيل الذى يسلكه فيه زمانه ومولده وأسرته.

ولعل من العجيب أن راشد كان بهذا التحضر العقلى فى خاصة شأنه، وأن يحافظ فى نفس الوقت على العرف والتقاليد محافظة صماء اذا لم تكن تتعارض مع رغباته وأهوائه ومزاجه الخاص.

فصلاته النسائية فى مصر قبل الزواج مستورة لا يعرف عنها أحد شيئا، ولولا خطأ نسيان لما أتيح لفهمى ما أتيح له من الحصول على هذه الورقة.

أما صلاته النسائية فى باريس فقد كانت صاخبة عديدة يستره فى علانيتها أن أحدا لا يعرفه هناك.

كان راشد شخصين متناقضين، وهما مع ذلك متوائمان فى نفسه، متفاهمان لا يعارض واحد منهما الآخر، ولا يعترض أحدهما على ما يأتيه الثانى كتوأمين اختلفت أخلاق كل منهما عن الآخر، وتآلفهما فى الوقت نفسه الحب العميق والاعجاب.. كان كل من الراشدين فى نفس راشد يعجب براشد الآخر ويحبه ويشيد فى همسه به. ولولا خشية أن يقال نرجسى يحب نفسه لأعلن عن حب الراشدين أحدهما للآخر المكتم فى نفسه التى تبدو أمام الناس راشدا واحدا. بل لقد كان هذا الحب المكتوم هو فى ذاته صانع الشخصيتين وسر حياتهما معا.

كان راشد العربيد يعجب براشد الجامد الصلب المحافظ على التقاليد المعتنى بملبسه عناية تقليدية. فلا ينسى أن يمسك العصا وأن تكون الياقة منشاة انقلب طرفاها إلى أعلى وتوسطها رباط عنق أنيق يتوسطه هو الآخر دبوس ماسى عريق.

ويعجب راشد العربيد براشد فى المحافل العامة، رافضا اختلاط الرجال بالنساء، ورافضا عمل المرأة إلا أن تكون خادما بالمنازل، ورافضا كل ما تريد الحضارة أن تدخل به إلى العصر.

ويعجب راشد العربيد براشد مقيم الصلاة فى مواقيتها، وذاهبا إلى المسجد من يوم الجمعة حتى اذا كان فى القرية سبقته السجادة ليصلى عليها. واذا عرف فى القرية أن شابا من شبابها يغازل امرأة أو يحاول أن يعتدى عليها، استقدمه وانهال عليه ضربا، حفاظا على الشرف، وردعا لكل من يحاول أن يحطم تقاليد الدين، وعرف الآباء والأجداد.

ويعجب راشد العربيد براشد فاتح بيته فى القاهرة والريف كل ليالى رمضان ومشاهير المشايخ يتبادلون قراءة القرآن، ويؤم البيتين

الناس يباركون هذا العرف العظيم الذى يصر راشد أن يحافظ عليه.

أما راشد، هذا التقليدى، فهو يعجب براشد العربيد فى كل ما يأتيه راشد العربيد، سواء كان ما أتاه تاريخا لا يعود، أو واقعا يعيش فيه. وسواء كان ذلك فى باريس مفضوحا هناك محبا لاعلان العربدة، حيث لا يعرف أحد من ذلك العربيد، أم فى القاهرة يأتى من يأتيه من النساء فى محافظة على التقاليد وفى عربدة صامتة وقور لا تتفاضح ولا تعالن وإنما تستمتع فى داخلها فتحتوى المتعة جميعا غير ذائعة ولا بادية. ولكل من الصخب والصمت والعربة والوقار متعته فى نفس راشد.

ولكن راشد حين جاء أسامة أحس أن راشدا ثالثا وفد على الراشدين، وأحس أن هذا الثالث لن يجعل الأمور تجرى فيما تعودت أن تجرى فيه.

كان راشد براشديه يحسن أنه حر وأن لديه من المال ما يكفيه لارضاء نفسه فيرضى بها الراشدين جميعا.

كان المال عنده وسيلة يحقق بها ماتصبو إليه نفسه، سواء كان هذا الذى تصبو إليه مرحا ومتعة، أم كان تعاظما ووقارا. فملبسه دائما أفخم ملبس، وأثاث منزله أعظم أثاث، وسيارته أحدث طراز.

والمال متعة لا مثيل لها مادام عند صاحبه وسيلة لغاية.

والمال نقمة لا تماثلها نقمة إن أصبح هو فى ذاته غاية لا وسيلة، وهدفا لا طريقا، وأملا لا سبيل لأمل.

أى شيطان ركبه فجعله يظن أنه ينبغى له أن يترك لابنه مالا أكثر مما يملك.

لقد أحس فجأة انه لابد له أن يضاعف الثروة التى ورثها، حتى

يرضى ابنه هذا الذى مازال فى سنوات الرضاع.

أصحيح أحس بهذا أم تراه هيأ لنفسه أن يحس هذا الاحساس؟ هل يقلب الأبناء آباءهم رأسا على عقب؟

أيمكن لهذا الطفل الذى يلوح طيفا قادما على المستقبل لم تكتمل معالم وجهه أو جسمه.. مشروع الانسان هذا يستطيع أن يقلب شخصا فى جبروت راشد، وفى اكتمال عناصره من شخص يريد المال ليستمتع به إلى شخص يريد المال للمال؟ أنا لا أصدق. أغلب الظن أنها رغبة خفية فى نفسه تبحث لها عن باب يبدو مشروعا لتنقلب حقيقة، ولتجعل من صاحبها الذى عاش سيدا للمال إلى عبيد المال. فالذى يريد المال ليعيش به يظل سيدا لماله ولزمنه، فإذا أصبح المال فى ذاته هو الغاية لذاته لا لما يحققه لصاحبه من عيش رغيد، ينقلب المال حينئذ سيدا شرها قاسيا جبارا متسلطا بلا رحمة. ومن أين الرحمة وهو جماد بلا عاطفة، ومن أين وهو هو أكبر أعداء العاطفة، وباسمه هذا المادى تسمت كل المذاهب البعيدة عن روحانية البشر وعن انسانية الانسان. إنه يمثل الجانب الصلب الحاقد البشع فى البشرية جميعا..

أكان راشد فى دخيلة نفسه يريد الغنى للغنى، وليمتع نفسه بمتعه الظاهرة والخافية حتى اذا جاء أسامة بدا ما كان يخفيه.

من يستطيع أن يقول؟ علماء النفس هؤلاء أبعد الناس عن معرفة النفس، وشر ما تخادع النفس نفس صاحبها.. تلهو به، وتعميه عن حقائقه، وتجليه عن مواقعه من الحياة، ويظن بذاته غير حقيقة ذاته، ويمضى إلى مسالك من الحياة لا تطيقها نفسه ولم تهيئه لها، فهو ما عاش متخبط، وإن ظن بنفسه العلم والثبات، فإن صادفه شيء من



النجاح ظن أنه عرف الطريق وهيهات هيهات أن يعرف. فإن كان ذلك الفيلسوف قد طلب إلى الانسان أن يعرف نفسه فى كلمتين «اعرف نفسك» كأنهما بديهية من البديهيات، فقد كان يدرى أو لعله لم يكن يدرى أنه بهاتين الكلمتين قد طلب إلى الانسان أصعب ما تطلبه الحياة من الانسان.

مسكين أسامة، اتخذه أبوه سببا، وما كان سببا، وجعل من مجيئه مستدار حياة وما يدرى أسامة، ولو درى لجثا على ركبتيه لأبيه يرجوه أن يظل كما عاش حياته، سيد المال لا عبد المال.

اذا أصبح المال هو الهدف انعدام الهدف. فالأرقام لا تعرف نهاية، ومادمت لا تعرف لهدفك نهاية، فأنت ومن لا هدف له سواء، وويل لانسان انعدم من حياته الهدف. بل لعل الذى يحياها مصادفة يترك لأيامها أعنة قيادة ومتجه أحلامه ومسار آماله أعظم سعادة من انسان جعل جمع المال هو الهدف، وهو الحياة. فإن هذا الانسان المسكين جهل أو أراد أن يجهل أن الهدف قد انعدم من حياته، وإن كان قد وضعه أمامه، فالمال المال والسعار السعار والحياة اذن جحيم لا ينتهى إلى نعيم، ونيران لا برد لها ولا سلام. والانسان يومئذ يجهل الرقم الذى يريد أن يقف عنده فإن قدره وبلغه اغراه المال بما بعده، وتنهار حياة الانسان تحت نعال المال ويصبح السيد عبدا وباختياره.


١٠

خسر عدلى القضية ضد أبيه، وربما كان يعلم أنه سيخسرها على أية حال فإن كان عقله قد حال دون هذه المعرفة فالذى لاشك فيه أن راوية زوجته كانت تعرف ذلك، وإنما حلالها أن يصبح اسم الباشا وابنه على كل لسان. فالحياة مع عدلى راكدة وراوية ليست خائنة بطبيعة تكوينها. فهى لم تخن زوجها ولا تنوى أن تخونه. وهى لهذا ضيقة بحياتها معه ضيق ملالة، وهو نوع من الضيق يجعلها تبحث دائما عن تسلية. قد تكون هذه التسلية كبيرة كقضية الباشا أو صغيرة كانضمامها إلى مجموعتين من السيدات احداهن للحديث، وهذه تضم خديجة وشهيرة ومجموعة أخرى للعب الكونكان لعبا لا تلقى فيه بكثير من الأموال، فهى ليست مغامرة بطبيعتها، وهى تعلم مقدار الغنى الذى انسكب على زوجها بعد وفاة أمه وخاصة أن أباه فى ترفعه أبى أن يأخذ نصيبه من تركة زوجته وترك ذلك النصيب لابنه الذى رفع عليه دعوى السفه، فزاد هذا من اكبار الناس لزكريا

ومن احتقارهم لعدلى. على أية حال لم يكن هذا الغنى سببا يجعل راوية تنفق المال فيما لا يفيد. فهى تقدر أن ابنتها التى جاءت بها والتى لا تنوى أن تجىء بغيرها لن تغفر لها تبديد أموال أبيها. وقد كانت ابنتها هالة هى كل شىء فى حياتها.

فمادامت حياتها قد خلت من الزوج فلا أقل من أن تعمرها الابنة.

وهكذا استطاعت راوية أن تتواءم مع حياتها وتقبلها وتخلق فيها المتعة التى حرمتها بزواجها من هذا الأبله.

وقد كان عدلى خليقا أن ينعم بحياته هو أيضا. فهو يستطيع دائما أن يجد أصناف الطعام التى يطهوها، ويستطيع دائما أيضا أن يجد مجالس النساء، ويشاركهن الحديث. كان يستطيع هذا جميعه ولكن قضية أبيه حطمت كل المتع التى كان يستطيع أن يخلقها لنفسه. لقد وهم أن القضية ستحطم سمعة أبيه. فإذا هى لا تمس أباه فى شىء، وإنما تحطم حياته هو تماما.

لقد وجد نفسه بين أصدقائه مجال سخرية لاذعة كانوا يخفونها عنه فأصبحوا يبدونها. بل لقد وجد السيدات من صديقات أمه يشحن عنه بحديثهن. حتى لقد أحس فجأة انه لا يجد فى حياته شيئا أو انسانا. زوجة لا تحدثه إلا بصيغة الأمر، وهو بأوامرها هذه مطمئن إلى أن شئون البيت لا تحتاج منه إلى رعاية.

ولكن هو.. هو عدلى ماذا يصنع بحياته.. أن أموال أمه كلها عمارات، فهى لا تحتاج إلى ادارة وإنما هى الدائرة يذهب منها موظفان كل شهر يجمعان الايجارات، ثم لا شىء بعد ذلك وهو يذهب إلى دائرة أمه كل يوم ولكن بلا عمل.

تاه عدلى فى الحياة وتاهت به الحياة.. لا يرافقه فى التيه الممتلىء

بالحسرة إلا صديقه عزت بهادر.. لعلك لا تذكره فقد مر ذكره عليك مرورا لا بريق فيه ولا لمعان.

وماذا بى أن أمعن عنده النظر والحياة نفسها خلقته فى عجلة فلم تجعل له عمقا يقف عند محب للتعمق.

انه ابنة خالة خديجة. وكان طبيعيا أن تقوم بينه وبين عدلى هذه الصداقة التى تجمع السخفاء والضائعين فى مواكب التفاهات، يزيدهم الغنى تفاهة، ولا يستر عليهم حقيقة أمرهم. ومن عجب أن تصحب فضيحة عدلى مع أبيه فضيحة لعزت فى الدوائر التى تحيط بهما.

كان عزت على صلة بسيدة طلقت حديثا من زوجها.. وأعجبها جمال عزت وربما أعجبها أيضا فراغه. فالسيدات فى أحيان كثيرة يستطعن أن يعجبن بما لا يعجب به آخرون، ولم يكن عزت فى صلته بهذه السيدة يطلب منها وفاء أو ولاء فلقد عرف أنها اتصلت بعد أن عرفته باشا عجوز أرغمته ظروف خارجة عن ارادته أن يعمل فى الحياة السياسية، فإذا هو يتصدر منصبا خطيرا، وليس له فى نيل منصبه سابقة فضل، ولا عرف عنه الذكاء لا قدر الله، وإنما هو منصب يتمنى كل حزب أن يكون شاغله من أعضائه، وحتى لا يزيد هذا المنصب الخلافات بين الأحزاب استقر الرأى أن يشغله شخص لا ينتمى إلى أى حزب، ولا يعرف عنه أنه يميل إلى حزب بعينه وبين شخصيات مصر جميعا لم يكن هناك إلا عبدالمحسن باشا وفيق فشغل المنصب.

وتعرف فى احدى الحفلات بنجاة طلبة. وفى خبرة أدركت نجاة أنه طلبتها. فعزت وان يكن غنيا إلا أن غناه ليس بالقدر الذى يتيح لها أن

تنال ما تشاء. أما عبدالمحسن باشا فغنى لا نهاية له.

كان الباشا فى السبعين من عمره. وحين خرج من هذا الحفل كان موعد لقائه بنجاة قد تحدد.

والتقيا.

كانت نجاة حاملا منذ لقائها الأول بالباشا، وكانت قد أخبرت عزت أن يحدد موعدا مع طبيب يعرفانه ليخلصهما من الجنين فى شهره الأول. ولكن بعد أن تعرفت بالباشا اتجه رأيها إلى تفكير آخر.

- أنت لا تعرف منذ متى وأنا أحبك.

- هل كنت تعرفيننى؟

- ومن فى مصر لا يعرف عبدالمحسن باشا وفيق؟

- لم أكن أتصور أن سيدة فى جمالك تحب رجلا فى..

- لا تكمل.. أن أجمل سيدات مصر يتمنين منك نظرة.

- أنت تبالغين.. اننى رجل عجوز.

- عجوز.. أنت عجوز.. فليسألنى من لا يعرف وأنا أدله على الخبر اليقين.

- فأنت ترين اننى.

- شاب فى العشرين.. صحة تأكل الحديد.. ولكن هناك شرطا.

- أأمرى.

- تحتفظ بهذه الصحة لى أنا وحدى.

- أنت تعرفين أن زوجتى ماتت.

- وأنا من أين أعرف.. ربما لك زوجات أخريات تخفيهن.

- زوجات بالجمع.

- صحتك هذه لا يكفيها عشر نساء.

- طمأنك الله.

- احلف.

- أحلف.

- أنا لا أصدقك.

- لا تصدقين يمين الباشا.

- أنت معى. لست الباشا. انك هنا الولد الشقى الذى لا أضمن كلمة من كلامه.

- وماذا تريدين حتى تضمنى؟

- هناك حكاية لم أتأكد منها.. اذا تأكدت سأخبرك ما الذى أريده.

* * *

- اليوم لابد لنا من حديث.

- أنا تحت أمرك،

- لابد أن نتزوج.

- ماذا؟

- لاشك انك سمعت.

- لماذا؟

- أولا هذا هو الوضع الطبيعى.. فأنا سيدة مطلقة، وأنت مهما تكن فأنت غريب. ومقابلتى لك ستثير الأقاويل.

- ولكن مركزى.. ماذا سيقول الناس اذا أنا تزوجت.

- أتخاف أن يقال تزوج بسنة الله ورسوله، ولا تخاف أن يقال اتصل بسيدة عن غير طريق مشروع؟!

- ولكن.. ولكن.

- ولكن ماذا أنا لست من أسرة بسيطة.



- هذا مؤكد. فأنا أعرف المرحوم والدك. وليس هذا هو الاعتراض مطلقا. إنما أخشى أن يضحكوا من رجل في السبعين.

- سنك. هذا شأنى أنا وحدى.. وأنا وحدى التى أعلم حقيقة سنك حين تخلو بنا الحجرة.

- يا حبيبتى.

- ومع كل هذا فأنا لم أقل لك الخبر المهم.

- وهناك أيضا خبر مهم.

- انى حامل.

- ماذا؟

- الذى حصل.

- لقد عشت مع زوجتى أكثر من أربعين سنة، ولم أنجب منها فأرا.

- ولكنك فى شهور قلائل ستنجب منى طفلا. وانى واثقة أنه سيولد بهذه الشوارب التى تحلى وجهك، والتى يرسمها رسامو الكاريكاتير بدلا منك، ويقهقه الباشا من فرح أو سعادة أو من النكتة. فقد اختلط عليه الأمر ولم يعد يدرى، ويعود إلى الجد لحظة.

- ولكن اسمعى.. اسمعى.

- قل.

- ألا يحسن أن يكون الزواج عرفيا؟

- ولماذا؟

- أنت تعرفين أن ثروتى كبيرة. والطامعون فيها كثيرون. واذا عرفوا اننى تزوجت سيرفعون دعوى سفه على. اذا كان الولد الأهبل عدلى رفعها على أبيه وهو أبوه. واذا كانت دعوى السفه رفعت على زكريا باشا عبقرى السياسة والقانون ألا ترفع على؟ أما الزواج العرفى

المستور فأنت تنالين به حقوق ابنك.

- بعد الشر.

- اسمعى الكلام ومع ذلك لا يشعر به أحد.

- أنا موافقة.

وتم الزواج بشهادة عبود عبدالقادر السفرجى، وسمهان عبدالمولى السائق.

واستطاع الحمل بعد ذلك أن يظهر للعيان فى غير خجل. وقد أصبح هذا الحمل مزحة صويحبات نجاة تشاركهن السخرية منه. كما أصبح حديث الدوائر التى لا عمل لها إلا الحديث.

وعدلى وعزت يضحكان مع الضاحكين.

وقبل أن يفرح الباشا بقدوم ابنه انتقل إلى العالم الآخر وانفجرت قضايا الميراث.

والعجيب أن الطفل جاء نسخة طبق الأصل من عزت. فقد أبت السماء أن تشارك الخاطئين فى جريمة اختلاط الأنساب. والأعجب أن عزت أصبح هو الذى يدور مع نجاة عند المحامين ليتمكن من اثبات بنوة ابنه إلى رجل آخر. ولكن شهادة الميلاد على كل حال قد كتبت اسم الطفل وجدى عبدالمحسن وفيق.. وذهبت الشهادة فى طريقها القضائى، واستمرت علاقة عزت بوضعها هذا العجيب. واستمرت معها القضايا توشك لا يبين لها نهاية. فالثروة ضخمة، وأبواب الطعن والتلاعب بالقانون هيهات أن تعرف حدا تقف عنده.

وهكذا أصبح عزت مثل عدلى سخرية الساخرين. فما بعجيب أن تتوثق بينهما الصداقة. وكلاهما غنى، وكلاهما فارغ بلا عمل.

فى هذا الفراغ وفى هذا الشعور من كل منهما أنهما يعيشان

الحياة، ولا يعيشانها، بدأ ذهابهما إلى السباق يكون منتظما، وبدأ أيضا جلوسهما إلى مائدة القمار يكون يوميا.

ويحدث مالا يتوقعه أحد. تحاول راوية أن تمنع زوجها من اللعب، فإذا هي ولأول مرة تواجه من عدلي عصيانا.

كيف استطاع أن يعصى. لم يكن القمار قد تمكن منه إلى درجة الادمان. ولكنه أحس فجأة انه يجب أن يعصى. ويحدث شيء آخر لا يتوقعه أحد. لقد بدأ عدلي يتوارى بقبحه في جمال عزت، ويبحث عن النساء، ويحاول أن يتعرف بهن فإن رفضته واحدة لا تطيق قبحه، قبلته أخرى يغريها ماله.

ليس لعزت زوج ولا ولد رسمي. فهو حر يفعل بماله ما يريد. أما عدلي فله ابنته وله زوجته.. أن ذهب عنه هذا المال، فأي مصير يمكن أن ينتظرهما أو ينتظرانه.

اصبحت راوية تنظر إلى الحياة في هلع، وأصبحت فجأة تتمنى أن تعود إلى حياة الملالة، ولكن مازال هناك أمل يمكن أن تلجأ إليه.. ومالها لا تحاول.


١١

اصبحت سهير ممدوح حرم الباشا رسميا، وتصدرت بيت زوجها، واحست بمكانها هذا الجديد، وخشيت العيون الرواصد حواليهما، سواء كان ذلك فى المنزل أو فى خارجه، فأمرها اليوم وهى الزوجة الرسمية التى تصحب الباشا فى كل مجتمع غير امرها فى بداية الزواج يوم كانت تتستر عن العلن. لقد كان شعورها يومذاك يغريها بهذه الصلة التى أتاحتها لراشد فقد كانت تحس أنها عشيقة وليست زوجة. أما اليوم فالوضع مختلف سهل الاختلاف. ومادامت هذه الصلة بينهما وبين رشاد قد مرت لم تلكها الألسنة. فالحمد لله، وأصبح لابد لها أن ترعى مكانتها الجديدة ومستقبلها.

ولهذا لم تجد بأسا أن تلبى دعوة راشد لزوجها إلى العشاء، ولم تجد بأسا أيضا أن توطد صداقتها بخديجة. وبطبيعة الحال وجدت شهيرة فى اسم زكريا باشا ذلك الطنين الذى تهواه، فسعت إلى صلتها هذه بسهير، تزيدها ثبوتا ورسوخا وقد وجدت سهير فيها خير صديق. فهى تماما التى تصلح لصداقتها. فإن تكن الثقافة والقراءة والاصلاع قد أفسدت عقل خديجة وجعلتها فى جلوسها إلى السيدات تبدو غريبة، وان بذلت غاية الجهد أن تبدو متوائمة مع الجلسة. فإن شهيرة سيدة كما يجب أن تكون السيدات التى تحبهن سهير.. حكايات الآخرين والتعليقات الخبيثة أحيانا

والفاجرة أحيانا أخرى والذكية الطريفة غالبا.

كان أقصى أمل تسعى إليه سهير أن تأتى لزوجها الشيخ بمولود، وقد سألت الأطباء فوجدت أن ما تحلم به أمر يمكن الحدوث.

وهكذا ازدادت صلتها بشهيرة توطدا. فهى رفيقتها إلى كل المظان التى يمكن أن يحقق أملها. وحذار أن توحى إليك هذه الجملة بتفكير غير شريف. فهى فعلا تريد مولودا لزكريا. على أن يكون زكريا أباه فهذه المظان هى الأطباء غالبا. وفى أحيان قليلة تكون هذه المظان بيوت الله يتلمسن البركة عند المشايخ الأطهار وآل البيت. وفى مرة واحدة صحبتها شهيرة إلى أحد السحرة ولم تكررها، فقد خشيتا أن يغضب الباشا اذا علم.

وكان حمل شهيرة سببا رائعا لتكون زيارتها للأطباء طبيعية، وكانت صداقتها لسهير تجعل رفقتها بهذه الطبيعة نفسها.

وقد دلت بعض دلائل لا تكفى للتأكد أن أمل سهير وشيك التحقيق.

* * *

كانت راوية تريد أن تقصد إلى سهير مباشرة، ولكنها لا تعرفها. وقد خشيت من لقاء خشن ستكون سهير معذورة فيه بعد الذى فعله عدلى مع أبيه.

ولم تفكر راوية كثيرا، وإنما قصدت إلى خديجة. فهى تعرف حسن مداخلها للأمور وذكاءها وحكمتها عن التقدير.

- مطلب غريب سأطلبه منك.

- على كل حال أنا لست غريبة وتستطيعين أن تطلبى منى ما تشائين بلا استثناء.

- حتى ولو كان مطلبا شاذا.

- ان لم تقصدى صديقتك المخلصة بالمطلب الشاذ فمن تقصدين؟

- أريد أن أصلح ما بين عدلى وزكريا باشا.

- أرى مطلبك حكيما وعاقلا بل رائعا أيضا.

- أنت تعرفين أن عدلى انغمس فى القمار، وقد فشلت معه كل وسائلى، ويخيل إلى أن شعوره بغضب أبيه عليه هو الذى يجعله يندفع هذا الاندفاع.

- اسمعى أن تفكيرك كله صائب، ولكن لى رأيا.

- قولى.

- أنا سأسافر غدا إلى الحجاز مع الباشا لنحج. ولن يتاح لى أن أقابل زكريا باشا إلا بعد عودتى ولكن لى رأيا.

- وما هو؟

- ما سبب خلاف عدلى مع الباشا؟

- زواج الباشا.

- سأترك الحقائب وأنزل معك الآن إلى سهير أعرفك بها، وسترين أنها تستحق كل خير.

- أتظنين ذلك؟

- هلمى بنا.

* * *

كانت سهير جالسة مع شهيرة، وأصبحت كل دقيقة تمر على سهير دون أن يحدث جديد فيها يدنيها من أملها. وكانت السيدتان تتوقعان اى زيارة إلا أن تكون راوية.

ولكن سهيرة سيدة تعرف كيف تستقبل من يأتى إلى بيتها، حتى وان لم يكن متوقعا.. بل حتى ان لم يكن كريما معها.

قالت راوية:

- أظن يا سهير هانم لم تكونى تتوقعين هذه الزيارة منى.

- على العكس كنت أتوقعها من زمن بعيد.

وقالت شهيرة:

- طالما قلت لك أن سهير مندهشة أنك لم تأتى إليها.

- كنت خائفة يا سهير هانم.

- أظن هانم هذه ليست فى محلها.

- أنت مكان حماتى.

- ولكنى أقاربك فى السن. ونحن أقارب، وقد فرحت بهذه الزيارة فرحا لا تستطيعين أن تتصورى مقداره. فقد كان بعد ابن الباشا وبعدك عنه ينغصنى دائما، وليس له فى الدنيا إلا أنت وزوجك.

- البركة فى حضرتك.

- أنا لا أستطيع أن أعوضه عن ابنه وزوجة ابنه وحفيدته التى لم يرها حتى الآن.

وقالت خديجة فى ذكاء لبق:

- يا أختى. لقد أحضرتنى بلا مناسبة.. لا لزوم لى فى هذه الجلسة أبدا.
- لم أكن أعرف أن سهير هانم..
وقالت سهير مقاطعة:
- هيه؟!
- سهير لطيفة إلى هذا الحد.
وقالت خديجة:
- وعرفت.. أروح أنا لأكمل حاجات السفر.
وقالت شهيرة:
- حج مبرور ياستى والله لولا الذى أحمله لذهبت معك.
وقالت خديجة:
- فلماذا لا تأتين أنت ياسهير، وها أنت لا تحملين شيئا.
وقالت شهيرة فى تخابث مقصود:
- وكيف عرفت؟
وقالت خديجة فى فرحة مندهشة:
- ماهذا؟. أصحيح هذا الكلام؟
وأطرقت سهير وقالت شهيرة:
- ولما لا ياستى. ألسنا مثل الأخريات؟
وتحمست خديجة:
- ردى يا سهير.. صحيح هذا؟
وقالت سهير فى جمجمة:
- والله أخشى أن أقول نعم. وأنا لم أتأكد بعد.
- يا أختى قولى نعم ولا يهمك.. ألف مبروك.

وقالت رواية فى فرح صادق. فهى تتمنى أن تنجب سهير. فوجود طفل لها سيجعلها تزداد حبا لابنتهما هالة.

- ربنا يجعل دخلتى عليك مبروكة إن شاء الله. ولو كانت غيرك وأنت أول مرة ترينني فيها لظننت اننى فرحانة من وراء قلبى، واننى كنت أتمنى أن يفوز زوجى بثروة أبيه، ولكن المال والحمد لله كثير، ولا ينقصنا، وليس لنا إلا هالة ولا ننوى أن نجىء بغيرها. وكم أتمنى أن يأتى لها منك عم قريب من سنها فيصبح لها كأخ من دمها ولحمها تستطيع أن تعتمد عليه. وفرحى بهذا الخبر فرح واحدة أحبتك من أول زيارة، وفى نفس الوقت تريد

أخا لابنتها. فصدقيني أنا فرحانة.

ـ يعلم الله ياراوية لقد صدقتك. وأنا لم يكن يهمني أن يكون المولود ولدا أو بنتا ولكن بعد الذى قلته أصبحت أتمنى أن يكون ولدا.

ـ سأدعو لك عند شباك النبى إن شاء الله يا سهير، وسيكرمك الله باذن الله أفوتكم بعافية.

هل ارسل لك السيارة يا راوية؟

وردت سهير:

ـ سيارتنا ستوصلها لا تحملى هما.

* * *

حين قصت سهير على زكريا باشا ما حدث.

ـ ألم تعرفى ان كانت جاءت بعلم عدلى أم بغير علمه.

ـ هى لم تقل ولكن الذى أتصوره أنها لم تقل له.

ـ أنا أمامى حل واحد.

ـ ما هو؟

ـ أنا أستطيع أن أعين عدلى فى وظيفة خارج القطر.

ـ خارج القطر؟!

ـ نعم مثل فرنسا أو سويسرا. فهو مهندس وعليه أن يمارس هذا الذى تعلمه ليحس أنه يصنع شيئا فى الحياة.

ـ ولكن يازكريا أن له ابنه فكيف يكون الأمر..

ـ نعم هذا ما أريد الكلام فيه؟

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أربى البنت.

ـ وماله؟

ـ أنا أعرف أنك تتمنين طفلا وحفيدتى عندك ستكون مثل ابنتك.

ـ أنا أريد أن أربى حفيدتك لأنها حفيدتك، لا لأنى أريد طفلا.

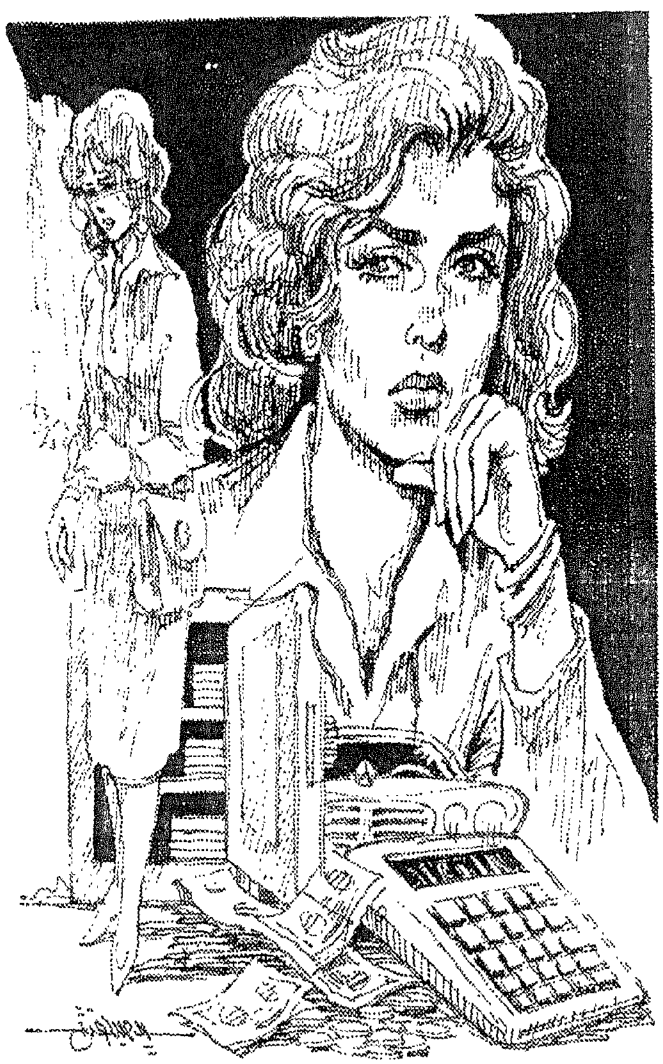
ـ وما البأس أن تجمع هالة بين صفتى حفيدتى وابنتك فى وقت واحد؟

ـ أنا عندى طفلى ولست..

ـ ماذا.. ماذا قلت؟

ـ كنت أريد أن أتأكد قبل أن أقول لك، ولكن ليس من المعقول أن تعرف صاحباتى وأنت..

ـ هل أنت جادة؟



- وهل يمكن أن أهزر فى مثل هذا؟
- وهل أنت متأكدة؟
- أكاد.

وحجم زكريا باشا وجلس مفكرا.

- ماذا يا زكريا أكثير على طفل منك؟
- ياسهير فكرى فى الحكاية.. ما هذا الكلام الذى تقولين؟
- والله أنا زعلت.
- يابنتى. لقد ظلمتك حين تزوجتك. وبهذا الطفل يكون ظلمى لك قد تضاعف.
- وهل شكوت لك؟
- سهير أنا لا أحتاج أن أسمع منك شكوى حتى أعرف الحقيقة.
- الحقيقة أنك تخاف أن يغضب عدلى ان جئت له بأخ. فأنت مهما يفعل بك تحبه.
- اسمعى ياسهير. عدلى أنا ظلمته، لانى شغلت بنفسى وبالسياسة ولم أعن أقل عناية بتربيته ولهذا انا أشفق عليه. أما الطفل الجديد، فأنا احبه أكثر من عدلى لانى لن أرى منه ما رأيته من عدلى.. حتى لو أصبح فى خلق عدلى فإن الحياة لن تتيح لى أن أرى منه شرا. أما تفكيرى الذى رأيته، ووجومى فهو أننى اهملت ابنى الأول بزحمة الحياة. وهأنذا سأهمل ابنى الثانى بفضل الموت.
- زكريا ماذا تقول؟
- لقد جاوزت الخامسة والسبعين. فكيف يمكن أن تتيح لى الحياة تربية ابن مازال جنينا فى عالم الغيب.
- أهذا ما يحزنك؟
- ومع ذلك فأنا لست حزينا. ففرحك بطفلك يجعلنى فرحا به أنا أيضا.. كل ما فى الأمر اننى أفكر.. أعجيب على رجل فى مثل سنى أن يفكر.
- اتركها على الله يا زكريا.
- إن الله سبحانه لديه الكثير الذى يشغله. هل كان لابد لرجل مسن أن يشغله هو أيضا بطفل يأتى به وهو فى آخر العمر.
- لا تحاول أن تفكر لله أيضا يا زكريا.
- استغفر الله العظيم.
- استغفر الله العظيم.


١٢

لم يكن ذهاب راشد إلى الحج خطوة عابرة، ولكن الحقيقة أنه مع كل العربدة التى صخبت بها حياته مؤمن عميق الايمان، وهو منذ تزوج استطاع أن يجعل من خديجة أنسه الصاخب حين يشاء، وزوجته حين يقتضى الأمر، فهو تائب.

وحين أتى إليه أسامة أراد أن يقفل من كتابه صفحات يخشى فى فترات ملل أن يغرى بفتحها ويعود إليها.

فصحب خديجة واتجه إلى بيت الله واستلم أركان الكعبة، وتغشاه ذلك الرهب الأمين الذى يعرفه من يعرفون الله، وانسربت من عينيه الدمعات، والتفت إلى خديجة تظلها صفحة البيت الحرام، فرأى فى وجهها الخشوع حيا فواحا بأريج من العطر حسب اللحظات أنه يراوحها من سماوات صاحب البيت واستغفر الله، وأطرق وظلت هى رانية العينين إلى الكعبة، يوشك من يراها أن يظن أنها تستشف من وراء الأستار وجه عزيز كريم.

طافا وأديا مناسك الحج، وانتقلا إلى بيت النبى، وما أن وقف فى

رحابه راشد حتى ذهل عن الدنيا وتولته خفقة أرعشته فإذا هو بكاء وبكاء، يكاد جسمه يستحيل إلى عبرات، وارتمى على أعتاب النبى، كأنه صديق قديم يلقى بنفسه إلى أحضانه، وراح يصيح هذا مكان الخطائين يارسول الله فاشفع.. اشفع فربما أخطأنا لتشفع.

وأحست خديجة أن بينها وبين النبى سببا فهى سمية حبه الأول وحضن رسالته الدفىء، وهى منذ عرفت الحياة تركع فى ايمان وتسجد فى صدق مع نفسها ومع الله.. ان القبر الذى أمامها يضم من الدنيا أحب الدنيا إليها، ويضم من الآخرة وسيلتها إلى أجمل ما تعد به الآخرة من لقاء وجه الله.

نسى راشد أن بجانبه زوجته، بل نسى أنه زوج، ونسى أن له ابنا ينبغى أن يدعو الله فى هذه السدة الزكية.

ونسيت خديجة أنها فى صحبة زوجها، بل ذهلت عما يحيط بها، ونسيت وهى الأم ابنها.

حتى اذا هدأ بعض الروع من الزوج والزوجة أشار المطوف فى هدوء صوته وكأنه أمر عادى ليس له ما له من جدال وسموق.

- هنا كان ينزل الوحى على رسول الله.

وانتفض رائد وكأنما مسه المس.. هنا.. هنا التقت السماء بالأرض أكرم سماء بأكرم من فى الأرض آخر لقاء عرفه الكون. هنا انقلبت موازين العالم من الجبروت إلى المساواة، ومن العزة بالاثم إلى عبادة رحمن السماوات والأرض، ومن الفجور إلى العفة، ومن الوهم إلى الحقيقة، ومن عبث الحياة والموت إلى مجد الدنيا والآخرة، ومن الحضيض إلى القمم الشامخات. ارتمى بجانب مكان الوحى وراح ينظر إليه فى خشوع وحب، ثم استجمع وقام فصلى وحين ختم الصلاة أفاق إلى خديجة تنهى صلاتها هى أيضا.

لقد زار راشد العالم أجمع. ولكن شيئا لم يزلزل كيانه جميعا كما زلزل فى رحاب الله وفى حضرة النبى الأعظم، ليس متصوفا وإنما

هو مؤمن. فما هذا الذى لقف نفسه جميعا وهزها، فانتفضت كشجرة فى بواكير حياتها تناوحتها ريح عاتية تقتلع شم الأشجار وعواليها، ولكن العجيب أنه أحس أن شجرته ازدادت ثبوتا فى سموات الإيمان وفى أحضان الخلود.

أحس أنه يريد أن يذوب تخشعا وحمدا لله. انه مؤمن. فبهذا الايمان تفجرت فى نفسه هذه الاشعاعات النورانية، فعانق نوعا علويا من السعادة لم يعرفه فى أى لحظة من لحظات حياته.. عربيدة كانت هذه اللحظات، أم لحظات مؤمنة قانتات.

مساكين أولئك الذين لا إله لهم ولا دين ترسو على شواطئه الآمنة الجازعات من أيامهم. والهالع من مضطرب حياتهم يقطعون حياتهم هباءة هائمة تقطعت أواصرها بأصولها، وانعدمت طرقها إلى المستقبل، لا تدرى من أين ولا تدرى إلى أين. باختيارها ألقت بنفسها إلى الضياع فشمل الضياع ماضى حياتها ومستقبلها وما بعد المستقبل.

ودع راشد وخديجة الأراضى المقدسة واستقبلتهما على الباخرة جماعة من الأصدقاء.

وحين استقر بهما المقام فى بيتهما بالقاهرة أقاما حفلا كبيرا دعوا إليه من تعودا أن يدعواهم ولكن الرهط المدعو فوجىء بشيئين لو لم يكن الداعى هو راشد، لكانت المفاجأة أعظم وطأة وأشد غرابة. لقد أقام راشد بمناسبة حجه وحج زوجته إلى بيت الله الحرام حفلا غنائيا أحيته أم كلثوم، والأعجب من ذلك أن الخدم داروا فى الحفل بكؤوس الويسكى والكونياك. وكل ما تعود رشاد أن يقدمه فى ولائمه الشىء الجديد الوحيد الذى خجل أن يعمله فى يومه هذا أن يشارك أصدقاءه فى شرب الخمر.


١٣

انقلب زكريا باشا إلى إنسان آخر بعد أن وهب له يحيى، وجاءت حفيدته هالة لتعيش معه بعد أن سافر أبوها إلى سويسرا ليعمل مهندسا فى شركة عالمية للكهرباء.

لم يصبح زكريا باشا ذلك الرجل الوقور الذى لا ينطق كلمة إلا بعد أن تمر بمئات المرشحات فى عقله الكبير وثقافته الواسعة التى جمعت ثقافة السياسة والقانون والأدب والمجتمع جميعا فى رأس واحد هو رأس ذلك الرجل.

أصبح الآن لا يغادر بيته فرحا بعبط الطفل الوليد، وسذاجة الطفلة التى تتحطم على شفتيها الكلمات.

والأعجب من ذلك أنه حين يجلس فى مجتمعه لا يفوته أن يذكر شيئا من ضحكات ابنه أو بكائه، وشيئا آخر من انقلاب الكلمات إلى ألغاز على لسان حفيدته.

أصبح الرجل الذى لم يهتم بابنه فى بواكير الشباب، فجعله يخرج إلى الحياة مثقفا ثقافة امرأة جاهلة أو ثقافة طاه على أكثر تقدير. يحاول اليوم أن يثقف ابنة هذا الابن أعظم ثقافة، بل انه فى تعجله للأيام وفى خشيته أن تعاجله بالنهاية قبل أن ينفذ لابنه وحفيدته ما يهفو إليه راح يحاول محاولات تدعو إلى السخرية أن يثقف يحيى نفسه، وهو على كتف أمه أو كتف مربيته.

ويوم تصبح سن هالة صالحة لأن تذهب إلى المدرسة يذهب هو شخصيا معها إلى مدرسة السكركير، وتشعر الراهبات بأهمية الطفلة عند جدها، ويقصد هو أن يؤكد هذا الشعور. فيذهب بعد ذلك كل أسبوع ليكون على متابعة تامة لتقدم حفيدته فى الدراسة.

وتدرك سهير أن فى ارضائها لها له ارضاء للباشا، فتحرص على أن تدللها دائما. ولم تكن سهير غبية، فلا يفوتها أن تجعل الطفلة تخاف جدها حتى لا تكون حياتها كلها تدليلا. ويحمل الباشا مسئولية التأديب بقلب خافق. ولكنه يدرك أنه لابد من ذلك لتكون هالة كما ينبغى لها أن تكون.

ويوم يصبح يحيى صالحا للذهاب إلى المدرسة يقضى الباشا ليلة بيضاء، فلا يزوره النوم حتى بواكير الصباح.

لقد عاش حتى دخل يحيى إلى المدرسة. فما الذى يخبئه الغد لهذا الطفل؟ وأى مصير يلقى إليه اذا هو ذهب إلى لقاء به قبل أن يشب الطفل ويصبح جديرا بمواجهة الحياة مواجهة جديرة بالحياة وبانسان الحياة. لقد كان شبح عدلى يخيف زكريا باشا.

فهو يخشى أن يصبح الأخ مثل أخيه، بل أشد ما يخشاه أن يصبح عدلى مسئولا عن يحيى. ويحيى بعد قضيب لدن يسهل تشكيله، وويل ليحيى اذا شكل أخاه على شكله هو.

ان سهير طيبة سمحة النفس. وقد ينفع هذا فى أن يجعل يحيى نقى الضمير قريبا إلى نفوس الناس، ولكن هذا بالتأكيد لا ينفع يحيى فى أن يكون مثقفا. فليست سهير على شىء من الثقافة.. ليتها كانت مثل خديجة. ان راشد لاشك مطمئن على ابنه. فقد جاء به وهو فى سن باكرة، ثم هو لا يخشى عليه الغد اذا اختار هذا الغد أن يسلك راشد طريقه إلى الله.

طالما نادينا بأهمية تعليم المرأة وظنوا بنا الظنون، وحسبوا أننا بما ندعو إليه نحاول أن نقترب إلى الغرب فى عماية، ودون نظر إلى ديننا وتراثنا. وأنا لا أعرف فى الدين شيئا يمنع تعليم المرأة. بل أن ديننا أول دين جعل لها كيانا وذمة مالية مستقلة عن ذمة الزوج.

أهذا وقته. من ليحيى فى غده.

لقد جاوزت العمر وأنا أعلم أنى اليوم أقف على مشارف الجانب الآخر من الحياة.

أرأيت. لا يستطيع العقل أن يحل كل المشكلات. لابد من هذه الغرفة المضيئة من الايمان لنحيا بها. فلولاها لجزعت أيامى كلها وقضيت ما بقى لى من الحياة مجنونا ملهوفا على مستقبل ابنى هالعا من الغد. وحينذاك أبدد أيامى الباقية فى الخوف، ويسلمنى الخوف إلى سوء الرأى.. ليس لى إلا أن أكل الأمر إلى

الله. والموت والحياة بيده. وبهذا الموت أو الحياة يتحدد مصير ابني يحيى وحفيدتي هالة.. اذن فهل نحن مخيرون أم مسيرون. نحن لا نتحكم في مولد أو موت واذن...؟!

ما بين هذين نحن فيه مخيرون. ومصير يحيى ألا يرتبط ارتباطا وثيقا بموتي وحياتي.. أهو بعد هذا مسير أو مخير؟

لقد اخترت أنا أن أجيء به، وأنا في هذه السن. وهذا في ذاته اختيار. ثم حين يشب عن الطوق هو مخير فيما يفعل. أهو مخير أم تحكمه تربيته.. وكيف سار نهجه في الحياة وكيف رباه من رباه. ولكن الذي رباه أيا كان سواء كنت أنا أم كانت أمه أم كان أخاه قد اختار له الطريق. فالاختيار اذن يحكم حياته.. سواء كان ذلك اختياره هو أم اختيار من أشرف على نشأته. لا يعقل أن السماء وهي العدل المطلق تجبر الانسان ثم تحاسبه. لا محاسبة إلا مع الاختيار. وبهذا يختلف جبار السماوات والأرض، وهو العدل في قمم العدل الشامخة، عن الجبارين في الأرض الذين ينزلون حكمهم على من لا يملكون الاختيار.

أجبر واختيار ومدرسة يحيى غدا، وأنا لا أدرى ما مصيره وما مستقبله.

انني تاركها إلى الله.. وهل بيدى إلا أن أتركها لله.

ومن يدرى لعل يحيى.. أعوذ بالله.. ليس لى غير الله.. أنا لم أقصر.. ولكنني قصرت.. أتزوج في هذه السن، وآتى به أيضا ثم أزعم انني لم أقصر.

لقد أخطأت وابني.. لهفي عليه.. هو الذي سيتحمل الخطأ لا أنا.

أخطأت مع عدلى حين أهملت شأنه..

وأخطأت مع يحيى حين جئت به.. وحسبى الله..

ولكن أكنت أملك إلا أن أجىء به؟

طبعا.

وأمه.

ما شأنها؟

ما ذنبها.. انها شابة وتريد أن تصبح أما.

فليكن إذن أبو ابنها غير هذا العجوز الذى هو أنا.

الخطأ يبدأ يوم تزوجتها.. اذن.

لا سـبـيل لأى اذن.. لقـد أخطأت وعلى وحـدى.. يا ليت على وحدى يقع العبء.. وإنما ولدى هو الذى سيحمل العبء، ولا ذنب له فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله.


١٤

نظرت شهيرة إلى ابنتها طويلا.. لم تكن تدرى لهذه النظرة سببا، وإنما هى ألقت عينها على بهيرة، ثم ثبتتها يحسب من يراها أنها نظرة بلهاء خالية من أى معنى. إلا أن نظرها اتجه إلى هذا المتجه، ثم شرد ذهنها وهى فى هذه اللحظة. ولكن لو أزاحت عن الانسان فيها ما يتغلف به الانسان من أسرار لرأينا فى جوانحها هلعا على ابنتها، أو اذا شئت الدقة فى التعبير، ومالك لا تشاء، مادمت قد التزمت أنا أن أقص عليك، وأن أكون دقيقا حين أخاطبك.

كان هلع شهيرة على نفسها لا على ابنتها، لقد قبلت زواجها من سامى، وحسبت أن الزوج بلا شخصية هو أصلح زوج لها، ثم ما لبثت أن تبينت أن الزوج بلا شخصية لا يصلح للحياة مطلقا، فهو ما يلبث مع الأيام أن يصبح شيئا بلا طعم ولا لون ولا رائحة. قد يكون مريحا لزوجته، ولكنها تلك الراحة التى تسعد بها المرأة من خادم فى البيت، وتشقى بها غاية الشقاء من زوج يفترض المجتمع أن يكون هو السيد.

وسامى مسكين لا يستطيع أن يكون سيدا أبدا. فالسيد لابد أن يكون مهيأ لذلك بخلقه الشخصى أو بماله أو بهما جميعا.

يمكن أن يكون السيد سيدا او رجلا ذا وجود اذا كانت الطبيعة قد وهبت له هذا السر العجيب الذى يجعل الانسان معتزا بأنه انسان. وبأن الله كرمه على العالمين، فلا ينبغى له أن يذل الانسان الذى كرمه الله فيه.

يمكن أن يكون رجلا ذا وجود اذا استطاع أن يروض أقدامه أن تسير على هذه الشعرة الواهية التى تفصل بين الانسان الذى يحافظ على كرامته، وبين الانسان التافة يحاول أن يحجب تفاهته بغروره.

وتلك موهبة ينميها البيت والمجتمع الذى يعيش فيه الانسان. وليس من الحتم أن يكون المرء غنيا لتنمو هذه الموهبة، وإنما من الحتم أن يكون هذا الانسان نابتا بين أناس يعرفون كيف يكرمون أنفسهم، وكيف يكونون كرما على الناس، يستغنون عن الغنى بالعفة، وعن الغرور بلين الجانب وحسن المعاشرة.

وقد يستطيع المال أن يحجب عيوب الشخصية المتلاشية، ولكن قليلا ما يحجبها ثم ما يلبث الأقربون أن يدركوا الحقيقة، ويسقط حجاب المال، وتبقى الشخصية الزائلة.

وكان سامى يجمع بين الشخصية الضائعة وبين قلة المال وابتكر لنفسه أيضا عدم العفة، فهو يريد أن يلبس أحسن ملبس ويأكل أحسن مأكل، ولا يجد حرجا من نفسه ولا من كرامته أن يلقى بهذا الثقل أيضا على زوجته، غير مكتف انها تقوم بشأن البيت وحدها.

وقد يكون عيب سامى هذا شيئا لا يصيب إلا خاصته الأقربين ومن يلاصقونه فى الحياة. ومن أقرب إليه من زوجته ومن ألصق به منها؟ ولكن ألا يكفى أن يصاب منه هؤلاء.. وما الناس جميعا اذا كان هؤلاء لا يكنون له الاحتقار.

حين تسقط قيمة الزوج عند زوجته يصبح كل شىء لها مباحا. ربما تكون شريفة الجوهر.. وربما تكون هى نفسها أبية تنأى بشرفها عن الألسنة اللاهية التى تتنمر بالمجتمع لتجعل السر فيه جهرا، والخفى علنا، والخبىء شهيرا، والمستور مفضوحا.

ولكن زوجا كزوج شهيرة كفيل بأن يجعلها تنتقم منه حتى ولو كان عرضها هو اداة الانتقام. وقد تنازعها الرغبة عن العفة، وقد تتغلب العفة آخر الأمر. أو قد تنتظر المرأة انتظارا غير لهيف وغير مكترث، ولكن انتظار ترقب، وقد تعرض لها سانحة الخيانة، وقد تتردد وقد تقبل أيضا.

كانت شهيرة وهى تنظر إلى ابنتها فى هذه الفترة التى تردد فيها والتى توشك فيها أن تقبل.

وكان الذى يعرض الفرصة صديقا لزوجها جمعت بينهما صداقة طبيعية. فهو رئيس زوجها فى العمل. ويتمتع سامى برضاء شكرى بك الكيلانى، فهو يحسن أن يكون مطيعا.

ومرض سامى بضعة أيام فزاره شكرى.. ورأى شهيرة فتوثقت الصداقة بين شكرى بك الكيلانى و.... وسامى.

وكان طبيعيا أن تؤدى هذه الصداقة أن يطلب شكرى بك شهيرة هانم كل يوم، ويتحرى أن يكون هذا الطلب وسامى فى مكان العمل.

وتنظر شهيرة إلى ابنتها بهيرة.

أى غد ينتظرك؟!

أب موجود بلا وجود!!

وأم لا تمنع غير زوجها أن يتصل بها.. ولا ترى بأسا أن توغل العلاقة إلى أبعد من ذلك.

بهيرة.. أى مصير ينتظرك؟!


١٥

نزل راشد باشا من سيارته والتفت إلى السائق عبده خليل في هدوء:
- سيأتى احدهم لتسلم السيارة.. سلمها له.
- أمرك سعادة الباشا.

ودخل راشد باشا إلى حجرة مكتبه، وجلس إلى المكتب البالغ الأناقة الذى ينتمى إلى عهد لويس السادس عشر، والذى يقال أن بعض وزراء هذا العهد كانوا يجلسون إليه، ولكن راشد لم ينظر إلى المكتب الأنيق، وإنما كل ما فعله أن خلع الطربوش وجلس على كرسى المكتب ورفع رجليه ليستقر بهما على مكتب لويس السادس عشر. ونظر إلى سقف الحجرة ورحلت عيناه فى تهاويل السقف التى تصور ملائك السماء يدفون بأجنحتهم حول ملاك كبير تباعد جناحاه المذهبان، وارتسمت على شفتيه ابتسامة وادعة مطمئنة لا تستطيع أن يفزعها أو يشغلها عن اطمئنانها مفزع أو شاغل.. انها ابتسامة ترنو إلى السماء وتطمئن إليها. ومادامت بالسماء قد تعلقت فلا شيء يعنيها بعد ذلك.. لا شيء.

وحين توغل العين فى الابتسامة وفى عينى الملاك تجد صفاء وتجد مرحبا لكل بنى الانسان، يؤكدها هذان الجناحان اللذان يفرشان السماء كأنهما ذراعان تتهيآن لاحتضان عزيز عائد.

كان راشد باشا ينظر إلى هذا جميعه، ولكن عينيه كانتا لا تتبينان من التهاويل شيئا.

يراها ولا يراها. تتماوج الصور فى عينيه فتبين وتختفى وتلوح حتى تبدو وكأنها مجسمة واضحة، وتتلاشى حتى ليعلوها الضباب أو كأنما تمحوها أفواج من الظن وأستار من الأوهام. يفكر راشد باشا ولكنه لا يفكر، ويندهش ولكن لا يبدو التعجب على وجهه. تتزاحم صور وجوه مع صور السقف، فلا يتضح رسم ولا تتبلور صورة ولا يتحدد وجه.

ربما توسط أمواج الطيوف أسامة فى وجهه البرىء وفى كلامه الجديد الطازج الذى يقع من أذن أبيه وأمه موقع النغم السماوى المنسجم. يذكر ما تعلم فى المدرسة، ويباهى به، وكأنما تعلمه وحده ولا يعرفه أحد من الناس غيره. ولا تغيب صورة أسامة وإنما يزحف عليها وجه خديجة، ويتقلب على مدى السنوات التى تزوجها فيها غير حريص فى تقلبه على الترتيب الزمنى، ولا على ترتيب ظهور لهذه التجاعيد القليلة التى بدأت ترسم فى نبل على صفحات وجهها. قد تبدو أمه معها وهى فى المرآة أول يوم رآها، ثم قد تقفز السنوات إلى يوم بشرته الزغاريد بمجىء أسامة، أو قد تبدو وهى تتكلم معه فى خاصة أمورهما، أو وهى تتكلم فى المجتمعات العامة فتحيط بها هالات من الاعجاب، أو قد تحيط بها أيضا هالات الحسد. وقد تبدو أمه، وقد يذكر مرضها وتشبثها بالفراش، وقد يثب وجه حمزة البلاشونى ثم فهمى عبدالحميد يكبر وجهه ويكبر حتى لا يتيح لأحد، ولا حتى لأسامة أن يبقى معه فى

اطار الصورة. بل العجيب أنه يزيح أسامة أول ما يزيح والأعجب أنه ما يلبث أن يضمه، ويحتويه وكأنه يهدهد أحلامه.

ويغمض الباشا عينيه، ولكن صورة فهمى متشبثه بالظلام تشبثها بالنور. ويهز الباشا رأسه فتمحى الصورة مرغمة.

ويعود نظر الباشا فلا يرى إلا تهاويل السقف، وتعود الصور إلى الوضوح، ثم ترين عليها أستار من الوهم أو أستار من الضباب.

وكأنما يثوب راشد إلى مكانه فتعلو وجهه فترة من الأسى، وقد تفكر دمعتان أن تستبيحا عينيه الشامختين، ثم ما تلبث الدمعتان أن ترتدا هالعتين تزجرهما كبرياء العينين أن تظهرا إلا فى العميق فى نفس الرجل الأشم. رافضا أن يبدو منه للعيان ألم، حتى ان كان خاليا إلى نفسه. فهذا المكتب بما يضم من أثاث، وما تحويه جدرانه وسقفه من نقوش أشياء خارجة عن نفسه، لا يجوز لها أن تعرف ما بداخلها أو تطلع عليه.

لم يكن يغبى أن هذا الذى يطالعه اليوم أمر يقع لكل من يعمل فى ميدانه. ولكن الذى كان يدهش له أنه كان يتقى هذا اليوم بكل ذكائه وكل خبرته. وفى سرحة تفكير استعاد بها الأحداث الأخيرة أدرك أنه تخلى عن ذكائه وعن خبرته جميعا يوم أراد أن يجتاح أسواق البورصة ليكون لابنه أعظم قدر من الثراء. وفى انشغاله بالنظر إلى الهدف عمى عن الطريق وغفل عن مزالقه.

لقد أصبح «ميداس» ملك الذهب الأسطورى الذى أحب الذهب حتى انقلب إلى ذهب. واذا انقلب العقل وتجاربه إلى جماد حتى ان كان ذهبا كف عن العمل الأصيل الذى خلق من أجله. وانهار الانسان. لأن الانسان تركيب يختلف تماما عن تركيب الذهب.. هكذا الأسطورة. أما

فى الحياة فإن العقل يتوقف، والتجارب، تنزوى ذليلة، وينهار الانسان. ولكن شيئا من العقل والتجارب او الانسان لا يصبح ذهبا.

لقد استعبده المال ففقد الاختيار، واذا فقد العقل الاختيار فقد معه سبب وجوده فى الحياة. والعجيب أن الانسان صاحب هذا العقل لا يدرك هذا، لأنه لا يستطيع أن يدركه إلا بالعقل الذى توقف عن العمل، ومن هنا أجد نفسى مخطئا. اننى بدأت هذه الجملة بالتعجب، بينما العجيب حقا ألا يحدث هذا.

لقد فقد حضرة صاحب السعادة راشد باشا برهان كل ما يملك. ومادمنا نريد الدقة فى التعبير، فقد أصبح كل ما يملكه سعادة راشد باشا وبرهان مرهونا رهنا حيازيا لدائنين مختلفين، من بينهم فهمى عبدالحميد وجود هذا الدائن بين الدائنين يجعل راشد على ثقة مؤكدة أن الدائنين لن يتجاوزوا يوم البيع بيوم واحد.

لو أمعن راشد التفكير لكان الحل الطبيعى الذى يؤدى إليه المنطق الأخرس الجامد الذى لا يعرف السماء أن ينتحر سعادة الباشا. فهذا هو أسهل الطرق التى يستطيع أن يسير فيها. فهو لا يطيق أن يرى زوجته تلبس أخلاق الثياب، أو يرى ابنه يتكفف الناس يسألهم ما يرد به الجوع.

ولكن فكرة الانتحار هذه هى الفكرة الوحيدة التى لا تجرؤ أن تقترب من ذهن الرجل الصامد راشد برهان. لقد عاش غنيا، وسوف يثبت لنفسه وللناس أنه يستطيع أن يعيش فقيرا. ويظل على الحالين كريما على نفسه. ومن كان كريما على نفسه، فهو كريم على الناس، وان رغمت من بعض الناس أنوف.

فى لحظته تلك لم يكن يعرف إلا أنه يستطيع أن يعيش، ولكنه فى

لحظته تلك لم يعرف كيف سيعيش. كان يدرى كل الدراية أنه مؤمن بالله، وانه لن يذهب إلى رحابه إلا فى طريق يرضاه الله لمن يؤمنون به.

والعجيب أنه فى لحظته القاتمة القاسية العاصفة، بل التى سكنت فيها العاصفة عن خرابه الكامل.. فى هذه اللحظة كان يغبط نفسه.. لقد وجد فيها شيئا أكرم من الغنى وأغلى من المال. لقد وجد الطمأنينة إلى السماء والايمان بالله. ماذا يفعل غير المؤمنين لو تعرضوا لما يتعرض له. كان شامخا أن استطاعت نفسه أن تقر، وهى تحس أن فى ثنايا نسيجها تتداح هذه النفحة الزكية الأمينة الحانية التى لا يستطيع أن يبقيها فى نفوس العباد إلا اليد التى أبرأت هذه النفوس، وحنت عليه حنوا يتقاصر عنده حنو الأمهات على الفطيم.

تلك اليد الرؤوم التى تشفع الكارثة باللطف، والجزع بالأمن، والفاجعة بالايمان.

أسلم نفسه لها، واتضحت له الحجرة كما عهدها خالية من الطيوف بريئة من الأخيلة. وانكشفت له تهاويل السقف عن فنها الرفيع الذى طالما بهره اذا ما سمت إليه عيناه.. أهذه الرسوم محجوز عليها هى أيضا.. أنها فن رفيع لا يقدر بمال، ولكن الدائنين لا يرون فيه إلا سقفا لا يكمل البيت بدونه، والبيت محجوز عليه. لا حياة للفن فى صراع المال.

دخل ادريس إلى حجرة المكتب.

- فهمى بك عبدالحميد.

ولم ينزل الباشا قدميه عن المكتب ولم يجزع، وإن كانت بعض الدهشة قد تولته:

- ما له؟

- فى الخارج يريد مقابلة سعادتك.



وصمت الباشا.. ليس من المعقول أن يأتى ليتشفى والجرح جديد.. إذن.

- دعه يدخل.

وانزل الباشا قدميه واستعد للقاء الرجل. فمهما يكن البيت محجوزا عليه إلا أنه حتى الآن بيته.

دخل فهمى عبدالحميد، وأسى صادق مرتسم على وجهه:

- سعادة الباشا!

- أهلا فهمى.. اقعد.. اقعد أولا.

- سعادة الباشا أنا لا أعرف ماذا أقول لك.

وعجب راشد أن رأى بواكير دموع تطفو إلى عينى الرجل، وكأنها تودع دموعا أخرى سبقتها.. وأصبح الموقف أكثر من الانسان. وأوشكت دموع راشد العصية أن تطفر إلا أنه زجرها.. فقد تكون دموع فهمى وفاء لصداقة قديمة، واعتذارا عن موقف سابق، أو أخوة صمدت فى وجه الأحداث. أما دموع راشد فلن تكون إلا ذلة واستكانة وضعفا، ولن يفهم فهمى أنها إنما انهمرت اكبارا للانسان حين يعلو على الانسان.

- لقد أصبح هذا البيت من نصيبى مقابل دين فى الأوراق مقداره عشرون ألف جنيه. هذه أوراق الرهن اقرأها سعادتك.

- وتريد البيت الآن؟

- أريدك أن تقرأ الأوراق ياسعادة الباشا.

ونظر راشد فى الأوراق نظرة سريعة كانت كافية لمن هو فى مثل خبرته. وقال وهو يرد الأوراق إلى فهمى.

- نعم فعلا.

- هل ينقصها شيء؟

- لا أظن.

- أعد النظر إليها ياسعادة الباشا واقرأها على مهل. ربما كان ينقصها شيء.

- أعتقد أنها كاملة يا فهمي لا ينقصها شيء.

- سعادتك متأكد؟

- طبعا متأكد.. وأنا على استعداد أن أسلمك..

- سعادة الباشا.. أرجوك تأكد من الأوراق.

- يا أخي اذا كنت تريد أن تتسلم البيت الآن، فأنا على استعداد.

- سعادتك تقصد أن تخرج من بيتك الآن ومعك أسامة والسيدة والدتك المريضة والسيدة حرمك.

- هذا ما تقوله الأوراق وما يقوله حقك.. الرهن حيازى لمجموعة الدائنين. وقد قسمتم الرهن على أنفسكم فيما بينكم، وأصبح البيت من نصيبك بموافقة جميع الدائنين.. هذا لاشك فيه.

- وهذه هى أوراق الدين والحيازة ياراشد باشا.

وفى حركة ثابتة واثقة مزق فهمى الأوراق ثم أعاد تمزيقها.

- فهمى ماذا فعلت.. أنت بهذا تضيع حقك فى الدين؟!

- وما عشرون ألفا عندك.. ادفعها حين تشاء، أولا تدفعها اذا شئت. إنما أنا لا أخرج راشد باشا أو أسرته ووالدته من البيت الذى عاشوا فيه عمرهم كله.

- فهمى! أهذا معقول؟

- هذا هو المعقول. فلنختلف ولأحاربك وتحاربنى، ولكن راشد أدهم لا يخرج من بيته أبدا.

- فهمى! هل هناك كلام يوفيك حقك؟
- حاولت أن تكون السيارة ضمن دينى فلم أستطع.
- لا يهم.. لا يهم شىء.. أنت كما أنت الآن أمامى أعز من كل المال الذى فقدت.
- أنا لن أبقى لأسمع هذا الكلام.. السلام عليكم.
- والقهوة؟
- ستصبح شربات حين أرى الوقت مناسبا.

* * *

إن للسماء طرقا عجيبة. قد أتصور أن يفعل أى دائن ما فعل فهمى عبدالحميد. لو أن الانسان عرف السبل التى تستعملها السماء لأصبح إلها. ولكن السماء تحب أن تذكره دائما انه انسان لا يزيد، وهناك من فوق سبع سموات رحمة ترسل حنانها وشعاعها بالطريق الذى تراه مناسبا أو طبيعيا، لا الطريق الذى يتصوره مجرد الانسان.. وهيهات لمجرد الانسان أن يفهم.

كيف يمكن لفهمى عبدالحميد أن يكون ذلك الملاك، وهو هو نفسه الذى ارتكب من الأعمال ما يعف الشيطان عن ارتكابه.

كيف يستطيع الملاك والشيطان أن يعيشا معا فى كيان واحد، والذى يسمو إلى ما تصنعه الملائكة هو نفسه الذى يتردى إلى ما لا تهوى إليه الشياطين.. «ألهمها فجورها وتقواها».

فالذى يصنع الخير هو خير من الملائكة. لأنه يصنع الخير باختياره لا بالطبيعة المواتية التى لا تعرف الملائكة غيرها. والذى يتردى إلى فجورها يهوى إلى حضيض أسفل من حضيض الشياطين، لأنه هو نفسه كان يستطيع أن يختار الطريق الآخر الذى لا يستطيع أن يختاره الشيطان..

وألهمها فجورها وتقواها. قد يغلب الفجور مرة، وقد تغلب التقوى مرة، ويصبح الانسان تركيبا عجيبا، لا هو شر كله، ولا هو خير كله.. وإنما يتمازجان فيه فى غير تنافر، ويصبح كل من العنصرين مادة فى كيان الانسان ليظل إلى الأبد ذلك اللغز الذى حارت فيه مراحل البشرية على مر التاريخ.

* * *

قالت خديجة:

- أبيع مجوهراتى.

- هى فى البنك باسمى وأغلب الظن انه حجز عليها هى أيضا.

- أكلم أبى.

- أباك؟

- انه أبى.

- اسمعى هذه المشكلة ملكى أنا، وأنا الذى صنعتها، وأنا الذى يجب أن اتولاها وحدى.

- لتكن أنت من صنعتها، ولكن أنت رب بيتى، مسئوليتى عنك قدر مسئوليتك عنى.

- لو كان لك مال مستقل لكان الذى تقولينه طبيعيا.

- ولكن أبى مسئول عنى.

- سقطت عنه هذه المسئولية منذ تزوجتك.

- العلاقات الانسانية ليست عقودا تسجل فى المحكمة. يغضب أبى أشد الغضب اذا لم اقل له.

- غضبه سيكون أكبر اذا قلت له.

- منك؟

- من نفسه.

- من نفسه؟

- انه لا يستطيع أن يصنع شيئا.. دخل أبيك يكاد لا يكفيه.

- ما هذا الذى تقول؟

- حقيقة أنا أعرفها قبل أن أتزوجك، وتأخرت أنت فى معرفتها.

- ولكن لابد أنه سيعرف كل شىء عن حكايتنا.

- أنت طيبة يا خديجة.. هل تظنين أن أحدا فى مصر سيجهل ما حصل لى!!

- فهو الذى سيكلمنى.

- ربما.

- اذن فسيغضب لأننى لم أكلمه.

- أعلم ذلك.

- ماذا أقول له؟

- قولى انك عرضت على مساعدته فرفضت ذلك رفضا قاطعا.

- ولكن سيكلمك.

- لا تخافى.. فإن كنت فقدت مالى فإنى لم أفقد لباقتى.

* * *

وقالت أمه وهى فى فراش مرضها:

- راشد لا تخف.

- أنا غير خائف.

- مصاريف بيتك على.

- وأنت ما ذنبك؟

- كنت أستطيع أن أعطيك أرضى فتبيعها، ولكنى أخاف أن تأكلها

ديونك. سأبقى أرضى لأصرف منها على البيت.

ـ هانم أفندى لا أدرى ماذا أقول لك.

ـ لا تقل شيئا. لن أعيش طويلا، والأفدنة القليلة التى ورثتها عن ابيك ستؤول إليك. ولكننى أريد أن أعيش ما تعودت أن أعيش لا أسأل أحدا شيئا.

ـ سيكون لك هذا على كل حال.

ـ انك طول حياتك تنفق على وعلى ملبسى، وكنت أنفق أنا ايرادى على من يستحقون الصدقة.. وعندى بعد ذلك بقية، وايراد الأرض سيكفى مصاريف البيت، فلا تحمل هم هذه الناحية ودبر أنت حالك فى غير هذا.

* * *

وقال عثمان باشا فكرى.

ـ لقد أكرمت خديجة منذ تزوجتها وأصبح بينكما الآن أسامة، وهو حفيدى وأنا مسئول عنه وعن ابنتى وسنى. وتصرفاتك الكريمة مع ابنتى تتيح لى أن أكون مسئولا عنك أنت أيضا فدعنى أقدم مساعدتى.

ـ أنا دائما أعتبرك أخى الأكبر ان لم أعتبرك والدى، وأنت فى مكانه عندى، ولكنى أحب أن أقوم بنفسى بهذا العبء.

ـ أساعدك فى أيامه الأولى.

ـ وأصبح أمام زوجتى شخصا ضعيفا لا يستطيع أن يواجه الأحداث.

ـ لقد عشت عمرك غنيا.

ـ فدعنى أجرب أن أكون فقيرا.

ـ أمرك.

* * *

وقال أسامة:

- بابا ماذا حصل؟
- ماذا حصل؟
- فى البيت حاجة غريبة.
- مثل ماذا؟
- لا أعرف.
- هل نقص شيء؟
- السيارة.
- وأنت مالك بالسيارة؟
- أنا فقط لا أراها.
- أصبحت قديمة.
- اشتريت سيارة جديدة.
- ليس الآن.. هل هذا هو كل التغيير؟
- طبعا لا.
- وماذا أيضا؟
- لا أعرف.. ستى ليست كما تعودت أن أراها.
- مريضة.
- انها مريضة من زمان ولكنها ليست هى.
- وماذا أيضا؟
- وكفاية.
- وماما؟
- لا.. ماما لم تتغير.

- وأنا؟

- أنت؟!.. أنت؟! لا أعرف.

- والخدم؟

- لا أعرف.. يمكن ربما.. نعم.. افتكرت كانوا دائما يهزرون معى.. الآن دائما التكشيرة على وشهم.

- كل هذا رأيته.

- لا أعرف.. تعرف يابابا ساعات أحس بأشياء ولا أعرف كيف أقولها.

- مثل ماذا؟

- لو كنت أعرف كنت قلت.. لا أعرف.. فيه شيء ولكن ما هو.. لا أعرف.

- ستعرف يا أسامة.. سيأتى يوم وتعرف.

* * *

بدأ حياته الجديدة بداية لم تر مثلها القاهرة ولا أحسب أنها ستراها.. كانت هناك عمليات تجارية صغيرة تعود أن يتركها ولا يعنى بها ليهتم بعمليات أكبر. عاد إلى هذه العمليات، ولكنه كان يريد-أن ينتقل بسرعة.. وكان قد انتوى أمام نفسه ألا يستغنى عن أحد من الخدم أبدا، فقد استقروا فى البيت منذ سنوات طوال، وأصبح من غير الممكن أن يستغنى عن أحد منهم. كان هناك شعور يجمعهم أنهم أسرة واحدة لعل أحد منهم لم يفصح للآخر بهذا الشعور، ولكنه راسخ فى نفوسهم ربما إلى درجة عميقة وثابتة ومؤكدة حتى ليصبح من العبث أن تكون موضوع حديث.

وهكذا بقى عبده خليل سائق السيارة دون أن تكون هناك سيارة، وسرعان ما نبتت الفكرة فى ذهن راشد باشا.

والذين كانوا يعيشون فى القاهرة هذه الأيام أصبحوا يرون منظرا عجيبا.

سعادة الباشا يركب موتوسيكلا له مقعد جانبى يطلقون عليه سيدكار.. يقود الموتوسيكل سائق غاية فى أناقة المظهر يلبس البذلة التى كانوا يطلقون عليها بذلة طلب، وهى تمتاز بسترة مقفلة عند الرقبة زرقاء داكنة الزرقة على حوافيها قطان أحمر، والبنطلون منتفخ من أعلى تلفه بعد ذلك رقبة طويلة لحذاء جلدى فاخر.. هكذا كان ملبس عبده خليل وهو يقود السيارة الباكار نفس ملبس عبده خليل وهو يقود الموتوسيكل السيدكار الذى يركب سعادة الباشا فى مقعده. حتى اذا أراد الباشا أن ينزل فى مكان ما لبعض شأنه سارع عبده خليل يفتح باب السيدكار فى عظمة ووقار، وينزل الباشا فى سمته المهيب الذى تعود أن ينزل به من السيارة الباكار.

والباشا وهو يصنع هذا لا يفكر لحظة أنه يفعل شيئا يدعو إلى الدهشة، وفيم الدهشة.. ان الباشا يعتبر السيارة وسيلة لا غاية. والموتوسيكل وسيلة تؤدى الغرض نفسه. وراشد باشا برهان الذى كان يركب السيارة الباكار هو نفسه راشد باشا برهان الذى يركب الموتوسيكل السيدكار.



دق جرس التليفون بمنزل زكريا باشا.
- أنا عبدالقادر ابراهيم وكيل وزارة الخارجية يامعالى الباشا.
- أهل عبدالقادر بك، أهل وسهلا.
- متى أستطيع أن أرى معاليك؟
- وقتما تشاء.
- فى أسرع وقت اذا أذنت سعادتك.
- الآن إذا شئت.
- عشر دقائق أكون عند معاليك.

السن والثقافة والتجارب جعلت زكريا باشا يبدو هادئا وهو ينتظر وكيل الوزارة، ولكنه كان واثقا أن شيئا يتصل بابنه عدلى فى طريقه إليه.. وقد تعود منذ سنوات ألا يتصل شىء سعيد بابنه عدلى. أبت عليه تجاربه أن يفكر فيما يمكن أن يكون هذا الشىء.

وجاء وكيل الوزارة.

عدلى يسهر كل يوم إلى الفجر يلعب القمار فى جنيف، ولا يكفيه أى مال، بل ان صحته وهو الشاب لم تعد تستطيع ان تتحمل ما يصنعه بها.

مرتبه وايراده الذى يذهب إليه هناك يقذف به جميعا على مائدة القمار. بل انه حتى لا يتناول من الطعام ما يقيم أوده. فهو يفضل أن يلعب القمار عن أن يتناول الطعام الذى يحتاج إليه جسمه. فهو لا يذهب إلى الفندق إلا بعد الظهر لينام ساعتين ثم يستأنف. وكل هذا ما كان يحتاج إلى وكيل الوزارة ليأت به إلى زكريا باشا.

لقد نضب المال من يد عدلى فإذا هو يطلب من الفندق الذى ينزل به أن يصرف له شيكا يقدر بالنقود المصرية بحوالى خمسمائة جنيه. وقد قصد أن يطلب صرف الشيك فى يوم سبت حتى تكون البنوك مقفلة فى يوم الأحد، ظانا أنه يستطيع أن يكسب فيودع المبلغ فى البنك قبل أن يقدمه الفندق.

لم يكسب.

وطرده الفندق، وطالب السفير المصرى بالشيك وحساب الفندق.

دفع السفير. ولم يشأ أن يخبر الوزير لأنه يعرف أنه صديق الباشا، وأخبر وكيل الوزارة.

طبعا دفع الباشا كل ما أخبره به وكيل الوزارة، وما أن ودعه إلى الباب حتى عاد إلى التليفون ملهوفا:

- راوية.

- أفندم سعادة الباشا.

- تعالى حالا.

وحين جاءت.

ـ كم ترسل لك دائرة عدلى كل شهر.

وتسمرت عينا راوية على الباشا، وتقلصت خلجات وجهها، وحاولت أن تتماسك بكل ما يطيق البشر أن يتماسكوا، ولكن هيهات لدموع مثلها أن تغيض، لقد طفرت إلى عينيها سكبا وراء سكب!

ـ لا عليك يا ابنتى.. لا عليك خذى.

ـ لا آخذ شيئا ياعمى.. لا يمكن.

ـ ستأخذين.

ـ ألا يكفى انك تربى هالة وانك رفضت أن تأخذ نصيبك من تركة نينا نعيمة هانم؟!

ـ هذه أشياء ليس من شأنها أن تسقط واجب زوجك فى الانفاق عليك.

ـ هذه أخطاؤه وليس من المفروض أن تتحمل أخطاءه.

ـ ومن يتحمل أخطاء الأبناء إلا اباءهم.

ـ ألا يكفى ما تحملته أنت من عدلى؟

ـ أنا لم أتحمل شيئا.

ـ بعد كل هذا؟

ـ هذه كلها أخطائى أنا.. مادمت لم أحسن تربيته، فعلى أن أتحمل كل ما يفعل.

ـ من قال هذا؟؟ ياعمى الناس طبائع.. وعدلى طبعه هكذا ولا ذنب لك أنت!

ـ يا ابنتى أنا لم أقم بواجبى نحو عدلى.. وأنا الآن أحاول أن أستدرك الخطأ الذى وقعت فيه.. خذى.

ـ لا يمكن.

ـ أنت تعرفين إلى أى حد يحترمنى أبوك.

ـ أعرف.

ـ لا تضطرينى أن أدعوه وأعطيه ما يجب أن تأخذيه أنت.

وقبلت راوية المال. وانصرفت.

ولكن قصة عدلى لم تتم فصولا.

* * *

ما هو إلا شهر وبعض شهر حتى جاءت الأنباء أن عدلى سقط مريضا بعد هذا الجهد الذى أنهك به جسمه، واضطر الباشا أن يصحب راوية إلى سويسرا.

وهناك وفى حجرة من فندق فقير التقى الباشا مع ابنه عدلى لأول مرة بعد ما صنعه عدلى تجاه أبيه.

وهناك لم يجد الباشا من ابنه إلا بقية حطام لم يترك القمار منه شيئا.

كان موقف الابن ذليلا حتى لم يحاول أن يعتذر، وكان موقف الأب أليما حتى لم يذكر من هذا الشىء الذى أمامه إلا أنه ابنه وأنه مريض.

سرعان ما عرف الأب وعرفت راوية أن مرض الصدر هو ما يعانيه عدلى.

فى مصحة فى ليزين على جبل بالقرب من لوزان ا ستقر عدلى، ودفع الباشا نفقات العلاج، وأعطى لراوية ما يكفى لفترة أخرى، وسافر إلى القاهرة بالباخرة.

وفى القاهرة استقبلته من راوية برقية.. لقد مات عدلى.

* * *

منذ ذلك اليوم أصبح زكريا انسانا آخر.. كان يخشى أن يبدى حبه ليحيى ابنه، ويخشى أن يظهر ضعفه لهالة حفيدته، فاعتزل عنهما الحياة بعد أن أصر أن تقيم معه زوجة ابنه راوية.

ومنذ ذلك اليوم أصبح زكريا باشا يمثل لابنه وحفيدته شيئا مقدسا لا سبيل إلى الحديث معه، وإنما تصل إليها الأوامر منه والنقود وكأنه طيف غير انسانى لا صلة له بالبشرية.

وكان يحيى فى تلك السن التى يتشكل فيها الانسان ليصبح رجل الغد.

وأما هالة فلاهية يصغر عندها كل شيء ليصبح مجرد حدوتة أو أداة تسلية.

لم يكن زكريا يتوقع أن تطول به الحياة حتى يفقد عدلى، وأصبح يخاف على ابنه وابنته.. أن يتعلقا به ثم يخذلهما ويتركهما فينهار صرح فى نفسيهما كبير. كان يريد حياته أن تكون على هامش حياتهما. ولو أنه أراد أن يجتمع بهما لأعجزته نفسه، كان موت عدلى بالنسبة إليه فى سنه هذه نكبة لم يحتملها.

كان يدرى أنه لم يحسن تربيته، وكان يدرى أنه لا يصلح لشيء، وكان يدرى أن ابنه طعنه أو حاول أن يطعنه بهذه القضية التى رفعها. ولكنه أيضا كان يدرى أنه ظل لفترة طويلة من حياته ابنه الوحيد. وأن أهميته قد زادت حين أتى له بهالة وحين أتى هو بيحيى. وكان يجعل فى حياة عدلى من بعده أداة أمن تصحبه فى رحلته إلى الحياة الأخرى. ولكنه مات.

ثم هو فى لحظة ينهار به هذا الأمن ولا يبقى من عدلى إلا أنه



مات.. أما يكفى هذا. وسنة الحياة أن يدفن الابن أباه وويل للآباء. أو قل أن شئت ويل للحياة كلها اذا اختلفت هذه السنة فدفن الأب ابنه.

ينسى زكريا كل شيء ولا يذكر إلا أن ابنه مات، فتصبح مسالك الحياة أمام عينه مهوشة تافهة لا معنى لها.

لا يختلف عنده طريق عن طريق. بل إنه حتى لم يعد يريد أن يختار ولا أن يدلى برأى.

هو لا يشارك فى السياسة. وهو لا يذهب إلى مكتب المحاماة وهو لا يجد فى مجلس الأصدقاء أنسا أو ترفيها. لم يبق من الأصدقاء إلا من يصغرونه. أما أتراب حياته ورفاق طريقه فقد مالوا واحدا بعد الآخر، وأقفرت من حوله الحياة التى كانوا يصنعونها معا.

حتى السياسة التى كان من أعلامها اختلفت دروبها، وتغير رجالها فأصبح لا يفهم عنهم ولا يفهمون عنه. وحتى اذا فهموا فإنه لا يريد أن يدلى برأى.

وكيف يدرى زكريا باشا أنه اذا أبدى آراءه فى تربية ولده وحفيدته يكون قد قال الرأى الصواب. ومن يعرف الصواب والخطأ فى عصر هؤلاء. وكيف يستطيع أن يشارك فى تربية الأحفاد - فيحيى وان يكن ابنه خليق أن يكون حفيده - وهو لم يوفق فى تربية ابنه.

فى حجرته زكريا باشا، ان غادرها فساعة أو بعض الساعة، يحس بها أنه حى لم يمت ثم إلى غرفته يعود.

ومن هذه العزلة اتخذت سهير وراوية أداة ارهاب للطفلين. وعند يحيى أصبح سمت الرجل كما ينبغى أن يكون الرجل هو هذا

الباشا المنعزل. هكذا أصبح الأمر عند يحيى. أصبح يعتقد أن الرجل لا يكون رجلا إلا اذا لم ير أحدا ولم يره أحد وأصبح يظن أن الرجل العظيم - ومن أعظم من أبيه - يجب أن يكون صموتا لا يتكلم. فإذا تكلم فكلامه أمر، واشارته لا يصحبها إلا الطاعة من الآخرين. هكذا صورت له أمه أباه وهكذا أكد أبوه هذه الصورة بوجهه ارتمى عليه الحزن، واحتضنته تجاعيد السنين، فأصبح بمزاج الألم، والأيام تكشيرة لا انبساط لها..

ربما استطاعت راوية أن تنجو بهالة من هذه الصورة. وهالة على كل حال بطبيعة جنسها لا تصبو أن تكون رجلا.. ورجلا موهوبا. ولكن راوية خشيت على ابنتها أن يجعلها موت أبيها جانحة إلى الحزن فى حياتها، فراحت تتيح لابنتها كل فرصة للبهجة، ولم تكن تستعمل اسم الجد إلا حين ترى أن هالة تبالغ فى طلب البهجة، وكان ذكر اسمه مصحوبا بالرغبة التى تريدها الأم، وتلصقها به وهو فيها مظلوم، كافيا أن يرد هالة إلى ما تبتغيه الأم من الاعتدال.

* * *

كان يحيى فى السادسة عشرة حين مات أبوه زكريا باشا.

وفجأة وجد يحيى نفسه قد انتصب رجلا على رغم أنفه. فالخدم لا يذكرونه إلا بلفظ البك. هكذا مفردة دون اسم يحيى يسبقها أو صفة الصغير تلحق بها.

أصبح هو البك. ليس «بك» وإنما البك.. كاملة خالصة له. فقد أرادت سهير أن تجعل منه رجل الأسرة الجديدة، ولم يكن بد من أن تحيطه بكل هالات التوقير اذا كانت سنه وثقافته لا تستطيعان أن تحيطاه بشىء.

وحين مر بعض الوقت قالت راوية:

ـ ألا ترين من الأنسب أن أرجع إلى بيتى؟

ـ لماذا

ـ أنت تعرفين أن بيتى مغلق، ومن الطبيعى أن أعيش فيه مع ابنتى.

ـ وما الطبيعى فى ذلك؟

ـ كانت هالة مع جدها.. أما الآن.

ـ شأنك عجيب يا راوية. هى الآن مع عمها فى القرابة، ومع أخيها فى السن، فأى عجيب فى ذلك؟

ـ ربما يحب يحيى أن يعيش وحده.

ـ اسمعى.. أنا وأنت لم نختلف طوال هذه السنوات وأصبحنا كاخوات، وهذا البيت بيتى وبيت يحيى معا. وقد تعودت الحياة معك، كما أعتقد انك تعودت الحياة معى، وليس من الطبيعى أن تعيشى وحدك مع هالة وبيت عمها موجود، واذا كان الباشا قد مات، فإننا نستطيع أن نجعل من يحيى رجل البيت ونعيش معا.. ودعينا لا نعود لهذا الحديث.

ـ على شرط.

ـ قبلته.

ـ أتعرفينه؟

ـ كنت لا تشاركين فى نفقات البيت، والآن تريدين أن تشاركى.

ـ فهل تقبلين؟

ـ نعم أقبل.

* * *

من حسن حظ هالة، ومن حسن حظ يحيى، أو من سوء حظه لا أدرى أن هالة جاء لها خطيب.

أما أن هذا من حسن حظها فلاشك فى ذلك. فإن هالة لم تستطع أن تتصور يحيى هو البك. فقد عاش عمره رفيق الملعب وكانت تسخر سخرية شديدة من جو التوقير الذى تشيعه حوله أمه وتشتد السخرية بها اذا رأت أمها تشجع هذا التوقير. ولم تكن تحتفظ بسخريتها لنفسها وإنما. كانت تفجرها كلمات لا تتحرز أمام من تنفجر. وكثيرا ما كان ذلك يحدث أمام الخدم فترتسم على أفواههم بسمات تنال لاشك من الهيبة الصارمة التى ينبغى أن تفرش تحت أقدام الأمير الصغير.. البك..

وكان يحيى يجن من سخرية هالة، وكانت أمها تحاول عبثا أن تردعها.

ولكن هالة مسكينة. فما تستطيع أن تتصور يحيى كما تريد السيدتان أن ترسماه؟ دون أن تضحك ضحكا ساخرا يتشكل فى كثير من الأحيان كلمات لاذعة.

وهكذا لم يكن عجيبا أن يرحب الجميع بذلك العريس الذى تقدم للزواج من هالة.

ولم يكن عجيبا أيضا أن تكون التحريات التى أجروها عنه سريعة مبتسرة، تتسم بالتعجل أكثر مما تتسم بالجدية والتعمق.

كل ما عرفوه عنه أنه خريج التجارة العليا، وأن أباه تاجر من أواسط التجار لا هو بالغنى الفاحش الغنى، ولا بالفقير المدقع.

العريس اسمه جابر عبدالبديع الشحات فى السابعة والعشرين من عمره، ويعمل مع أبيه فى التجارة.

له أخ أصغر منه بسنة واحدة، وقد تخرج فى كلية الحقوق، واسمه حامد.. وحامد يعمل بالأعمال الحرة فى غير تجارة أبيه بجانب عمله بالمحاماة. والحقيقة فى أمر حامد أن مكتبه ستار لأعماله التجارية. فاسم المحامى ومكتبه يخلقان حوله جوا يستطيع عمله التجارى أن ينتفع بهما. وهو فعلا يعمل بالمحاماة، ولكنه يختار قضاياه ولجابر وحامد بعد ذلك أختان تكبرانهما ومتزوجتان، ولهما أبناء أما الكبرى فاسمها حميدة. وأما الصغرى فاسمها رشيدة.

وحين جمع الفرح الأسرة فى منزل زكريا باشا أحست راوية أنها تعجلت. ولكن هالة لم تفكر فى عقد مقارنة بين أسرتها الجديدة وأسرتها التى عاشت فيها، وإنما هى سعيدة أن تتزوج فى هذه السن الباكرة، ويعجب بها شاب أنيق مثل جابر. ولم تكن تجربتها تسمح لها بأن تقدر معنى هذه السلسلة الذهبية الضخمة السميكة المتوحشة التى يعلقها أبوه عبدالبديع الشحات على صدره، ولا معنى الفستان الأحمر الذى يسمون أحمره بالأحمر الانجليزى الذى ترتديه حميدة، ولا معنى الفستان الفستقى اللامع الذى ترتديه رشيدة.

أما راوية وسهير فقد فهمتا تماما أى أسرة ناسبتها ابنتهما المسكينة هالة. ونظرت كل منهما إلى الأخرى نظرة تقول «لماذا» لو أن هالة فقيرة وبحثت عن بعض غنى لكان ذلك مفهوما ولو أن السن تقدمت بها فشارفت الثلاثين، لكان هناك بعض العذر. لو أنها أحبت جابر وأحبها لأصبح الأمر لا يحتاج إلى تبرير.

ولكن هكذا وبدون أى أسباب. لماذا؟

وفى لحظة واحدة اتجهت العيون منهما إلى البك.. إلى يحيى.. ودمعت عينا راوية ولم تخف الدمعات. فالأمهات اللواتى يفقدن أزواجهن مباح لهن دائما أن يبكين فى أفراح أبنائهن أو بناتهن. ولكن سهير فهمت معنى الدموع من راوية، ووثقت من فهمها وأطرقت خجلا.. لقد جعلها حرصها على أن تجعل ابنها «بيكا» لا تكتنفه السخرية تنصح بتعجيل هذا الزواج دون ريث من تأمل أو بحث، أو تفكير.

كان فى الفرح كل أصدقاء راوية وسهير. فلم يكن عجيبا أن تكون شهيرة سيدة مرموقة فى الفرح تذهب وتجىء وتدعو إلى الطعام، وتمر بجانب الخدم وهم يقدمون الحلوى والشربات. بل لقد تولت هى نفسها تقديم علب الحلوى إلى المدعوين مع راوية وسهير.

وفى الفرح تعرف شباب بشباب.

تعرف حامد بيحيى وشهيرة وبهيرة وتعرفوا به ضمن من عرفوهم فى ليلتهم تلك.

كان يحيى فى فترة هذا الفرح قد اتخذ قرارا خطيرا، وزاده هذا القرار شعورا بالأهمية أن كان هذا الشعور عنده يحتاج إلى مزيد.

كان يحيى يتعثر فى التعليم حتى بلغ الثالثة الثانوية وهو فى التاسعة عشرة من عمره، وكان مازال المدى أمامه بعيدا. فقد كان لابد له أن ينال الثقافة ثم التوجيهية. وأدرك أن هذا أمر بعيد المنال ان لم يكن مستحيلا.

وهنا يقف علماء النفس حائرين. فهناك من يقول إن جو الأهمية الذى تفجر حول يحيى كان خليقا أن يجعله يذاكر، ويصبر نفسه على الجهد، لأنه لا يليق بالرجل المهم أن يسقط أمام الخدم والأتباع

الذين لا يقولون عنه إلا البك.

وهناك فريق من هؤلاء العلماء يقول ان هذا الشعور بالأهمية مع عدم الادراك لقيمة الثقافة يجعله يظن أن التعليم شيء ثانوى لا يستحق هذا العناء. وأن البك لا يجوز له أن يصنع ما يصنعه عامة التلاميذ، ويذاكر كما يذاكرون، وينجح كما ينجحون.

وهكذا تجد أن علماء النفس هؤلاء كثيرا ما يزيدون الأمور تعقيدا. وكثيرا ما تنغلق أمامهم المسالك، فلا أحد منهم يعلم إن كان على خطأ أم كان على صواب.

ولكن يحيى لم يفكر على كل حال أن يسأل علماء النفس، ولا أن يستخبر كتبهم وهو أيضا - وهو البك - لم يكن محتاجا أن يستشير أحدا، فحزم أمره، وقر رأيه وأصدر قراره.. لا تعليم..

وقرار البك لا مرد له.. وأدركت أمه أنها لن تستطيع أن تجادله فهى تعلم أن البك الذى صنعته وجعلت من حولها يصنعونه معها لم يعد صالحا للنقاش.

وهكذا أصبح البك بك رسميا، وإن لم تصدر بشأن رتبته براءة من القصر الملكى. وهو أيضا فى غير حاجة إلى براءة القصر الملكى. لأن الوهم الذى يحيط به ضخم ضخامة الحقيقة نفسها. فالبراءة بالبكوية لن تزيد حقيقة بكويته ثبوتا لديه أو لدى المجتمع الذى يحيط به.

وهكذا تثور حول يحيى بك مشكلة أعيت الأجيال، هل الحقيقة هى ما يعتقد الانسان، أم أنها معنى مجرد ليس يعنى بمن يعرفه أو من يجعله. وان كانت معنى مجردا فما قيمته اذا لم يجمع عليه الناس. ولكن هل كل حقيقة يجمع عليها الناس، ودعنا نسأل أيضا هل كل

ما يجمع عليه الناس حقيقة؟ . وما لنا لا نسأل أيضا وهل أجمع الناس على شيء؟

فإذا قلنا إن هناك غالبية كاثرة تجمع على أمر معين، وان هناك أقلية لا توافق الاجماع. فإنه لابد لنا أن نسأل مرة أخرى: هل من الحتم أن تكون أغلبية الناس معتنقة الحقيقة؟ وأن الأقلية لا قيمة لها ومن يحكم فى هذه القضية. إن هناك رأيا معروفا أن الحقيقة واحدة لا تتعدد. ولكن هل عرف أحد هذه الحقيقة الواحدة، ولكن أحدا لا يستطيع أن يعرف أين الحقيقة الخالصة فى هذا العدد الكبير من الحقائق. ليس غريبا اذن أن تكون الحقيقة ضائعة بين البشر الذى ركب من عقل وشهوة، ومن فكر وعاطفة، ومن حكمة وهوى. فبين التيارين المتعارضين تنزوى الحقيقة، ويعتقد كل انسان أن الحقيقة التى استقر عليها رأيه هى الحقيقة. فلا بأس اذن أن يعتقد يحيى أنه بك فعلا رغم افتقار رتبته إلى براءة رسمية.

وعرف حامد أن البك فى هذا البيت معناها يحيى، وعرف شهيرة وأعجب كل الاعجاب بابنتها بهيرة.

وكان بين المدعوين أيضا وجدى. فإن أردت أن أذكرك به فلابد أن أنسبه إلى أمه،، لأنها الجانب المجمع عليه من أبويه أنه ابن نجاة. وهو عند كل من يعرف نجاة ابن عزت بهادر، وعند القضاء الذى أصدر الحكم فى قضيته ابن عبدالمحسن باشا وفيق.

وكان وجدى فى نضارة الشباب وفى فتوته يتمتع بجمال أخاذ سامق ويتمتع أيضا بذكاء خارق يعرف هو بخلقه الخاص وظروفه التى أحاطت بولادته ونشأته، والقضايا التى وجدها تتلقفه مع مهد الطفولة كيف يستعمل هذا الذكاء وأين يستعمله. وهو فى أعماله

لذكائه هذا يستعمل كل ما لديه من أصل ممزق بين الحقيقة التى يكاد يلمسها بالشبه بينه وبين الذى يناديه بعمه عزت وبين الوهم الذى أكسبه القضاء حجية الشيء المحكوم فيه. كما يجعل ذكاءه يستخدم هذا الجمال الذى لا تستطيع عين أن تعبره دون أن تقف عنده وتطيل الوقوف.

وكانت خديجة وراشد باشا وأسامة بين المدعوين.

راشد باشا قد عادت إليه ثروته، ولكنه حولها إلى عمارات باسم أسامة مباشرة وقطع ما بينه وبين الريف تماما فباع عزبته التى استخلصها من أيدى الديانة، وابتاع بثمنها عمارات، فقد أدرك أن وحيده الذى ربى بالقاهرة لن يستطيع أن يستنبث من الأرض ريعها. كما أدرك ان ابن خديجة التى عاشت عمرها بالقاهرة لن يكون فلاحا، يفهم كيف يعامل الأرض. وقد حقق أسامة ظن أبيه فإذا هو طالب يحب العلم، واذا هو شاب يحب القراءة، وهكذا لم يكن غريبا أن يجد نفسه بين شباب الفرح يقف على جزيرة مستقلة به، وإن كان ذكاؤه قد مكنه أن يشارك الشباب من أمثاله فى أرضهم ودنياهم.

جمع الفرح قوما كثيرين وتعارف منهم من لم يكن من قبل متعارفا، والتقى الأصدقاء يصلون حديثا كان بينهم ثم انقطع، أو يدأون حديثا هو آخر الأمر إلى انقطاع.


١٧

اتصلت نجاة بشهيرة فى التليفون تحدد بينهما موعد:

ـ نحن بيننا صداقة عمر..

ـ ما لزوم هذا الكلام يا نجاة.. أنت تعرفين مكانتك عندى.

ـ أريد هذه الصداقة يا نجاة أن تصبح قرابة.

ـ هى الآن أكثر من قرابة.

ـ من غير لف أو دوران أريد بهيرة لوجدى.

ـ والله ياحبيبتى أنا تحت أمرك، ولكن بنات هذه الأيام لهن رأيهن الخاص. وأكذب لو قلت لك إن لى رأيا، أو إن لأبيها رأيا.

ـ أنا عارفة.. وعارفة أيضا أن جمال وجدى لا يماثله جمال، وأنت عارفة غناه.

* * *

وقالت شهيرة لزوجها سامى حسنين:

- الولد غنى وحلو، ولكنه دائما مع النسوان، وسمعت أنه يلعب القمار.. وحكاية المحكمة هذه ستظل تلاحقه.

ولم يكن سامى فى حاجة أن يقول لها الأمر أمرك، فقد كان يدرك أنها تكلمه لتفكر بصوت مرتفع، وليس لأنها تريد رأيه. فهو عندها بلا رأى.

لم تشأ شهيرة أن تخبر ابنتها عن هذه الخطبة. فهى لا تحتاج إلى رأيها هى أيضا. وإن كانت قد أنبأت بهيرة أن الرأى رأى ابنتها. فما كان هذا منها إلا لتعطى لنفسها فرصة لتفكر.

* * *

وقالت بهيرة لأمها:

- لماذا لم تقولى لى شيئا حتى الآن؟
- وماذا تريدين أن أقول؟
- ألم يخطبنى أحد؟
- اذن قد عرفت؟
- طبعا.
- من قال لك؟
- أنا موافقة على هذا الزواج.
- لن أخبرهم بالموافقة حتى تفكرى.
- لقد فكرت.
- وماذا علينا أن ننتظر؟
- ولماذا ننتظر؟
- يتهيأ لى أن هناك خيرا منه.

- الذى أريده أنا هو أحسن زوج لى.
- لا يغرك الجمال.
- لا شيء يغرينى.. كل ما فى الأمر اننى أريده وهذا يكفى.
- ومع ذلك سأنتظر.
- شأنك.

* * *

وطلب عبدالبديع الشحات موعدا من سامى حسنين:
- توكلنا على الله.
- على الله التوكل.
- مد يدك.
- تحت أمرك.
- نقرأ الفاتحة.
- على ماذا؟
- فاتحة بهيرة بنتك على ابنى حامد.
- آه! هكذا؟
- وماذا فى هذا.. لقد ناسبنا زكريا باشا حسام الدين.
- ومن غير نسب زكريا باشا أنتم ناس أفاضل يا عبدالبديع بك.
- كثر خيرك. فما التردد إذن؟
- أليس لهذه البنت أم؟ وهى أليس لها رأى؟
- ومنذ متى يكون للحريم رأى يا سامى بك.
- نعم.
كانت الكلمة بعيدة كل البعد عن حياة سامى فأطرق قليلا ثم قال:

- لابد من رأى الست والبنت ياعبدالبديع بك.. الدين يقول هذا.

- أمرك.. ولك أن تسأل عن حامد. محام قد الدنيا.

وأيضا تاجر واع ويكسب من الهوا.

- ربنا يهيأ الخير إن شاء الله.

* * *

وذهبت شهيرة إلى خديجة وحكت لها عن العريسين اللذين جاء فى وقت واحد تقريبا لبهيرة، واستطاعت أن تصوغ الحكاية وكأنها تستشيرها، وفهمت خديجة الاشارة.

قالت للبك:

- يحيى أليس من الطبيعى أن تتزوج.

- حين أجد البنت المناسبة.

- عندى.

- من؟

- مال وجمال وأصل.

- أعرفها؟

- كل المعرفة؟

- فمن هى؟

- خمن.

- بهيرة؟

- عجيبة.. كيف عرفتها؟

- أنا لست غبيا.

- لا.. الحكاية وراءها سر.. هل تحبها؟

ـ اخطبيها لي.

* * *

ودون أن تستشير شهيرة ابنتها أو زوجها أعلنت الموافقة، وأدركت بهيرة أنه لا سبيل لها أن تعارض.. وان كان وجدى قد استطاع أن يبهرها بجماله، ويكلمها بضع مرات فى التليفون فالأمر لم يصل إلى الحب الذى يجعلها تقف من أمها الذى يتبعها أبوها موقفا فيه تعنت. وكان اعلان القبول ليحيى يحمل فى ذاته اعلان الرفض لوجدى وحامد معا..

وتم الزواج.



حين أعلن قانون الاصلاح الزراعى كان راشد باشا قد لقى ربه فلم يتح له أن يشهد نتيجة تصرفه الذى استبدل الأرض فيه بالعقارات، ولكن أسامة قرأ الفاتحة على روح أبيه شاكرا له ما صنع، فقد استطاع أن ينجو به من الاستيلاء على أمواله.

أما يحيى فقد كان يملك أرضا كثيرة، وكان قد أنجب ولديه باسل وشهاب، وكان من الطبيعى أن يبحث عن محام ليقوم له بعمل الاقرارات. ولكن قبل أن يبحث كان حامد عبدالبديع بين يديه.

- سعادة البك النسب له حقوق.

- طبعا.

- بمجرد نشر القانون جئت لأقوم عنك بعمل اللازم.

- ألف شكر.. فكرت أن أتصل بك ولكن مسألة الأتعاب جعلتنى..

- مسألة ماذا؟

- وهذا ما كنت أخشاه.

- لا تقل هذا الكلام ياسعادة البيك.. عيب.. لا يصح.

- إذا لم تأخذ أتعابك فاسمح لى لن أستطيع أن أوكلك.

- وهل بيننا أتعاب.. إنما بيننا نسب.

- هذا لا يمنع هذا.

- وماذا يقول أخى، وماذا تقول بنت أخى سعادتك هالة؟

- لن يعرف أحد منهم شيئا.

- على كل حال هذه مسألة نتكلم فيها فيما بعد.

- وهو كذلك.

- كم فدانا عند سعادتك؟

- ما يقرب من ستمائة وستين.

- كل هذا؟

- نعم. فقد اشترى أبى أرضا كثيرة.

- وكم عمارة؟

- هل القانون ذكر شيئا عن العمارات؟

- لم يعد شىء مؤكدا.

- عندى ست عمارات.

- العمارات تكتبها سيادتك باسم باسل وشهاب.

- وأن أكتب لكل منهما خمسين فدانا.

- طبعا. ولكن الأرض الزائدة لها عندى ترتيب آخر.

- ماذا؟

- ليس من المعقول أن تسلمهم ثلاثمائة وستين فدان.

- وماذا يمكن أن أفعل؟
- القانون أتاح لنا شهرا للبيع.
- نعم.
- أنا - إذا سمحت - سأذهب إلى العزبة وأبيع بقدر الامكان.
- لا بأس.
- غدا تكتب لى توكيلا.
- وهو كذلك.
- والباقى بعد البيع سأتصرف فى شأنه.
- ماذا؟
- سأتصرف فى شأنه.
- ماذا تعنى؟
- أعنى انك لن تسلم فدانا واحدا للحكومة.
- ماذا تقول؟
- يحيى بك هل سعادتك محام؟
- لا.
- إذن اتركنا نشوف شغلنا.

* * *

كان وجدى جالسا فى بيته وحوله جماعة عجيبة.. كيف عرفهم؟ ومتى عرفهم.. هذه هى عبقرية وجدى وعبقرية إناهد..

وكانت ناهد فكرى تزين الجلسة، ومعها الراقصة الذائعة الصيت سوسن. وما أظننى بحاجة إلى أن أذكر اسم والد سوسن فشهرتها قامت باسمها وحده دون اسم السيد والدها. وعلى كل حال فاسم

ابيها إذا قالته ل يكون الاسم الحقيقى. فليس من المعقول أن تقول ان اسم أبيها هو عبدالدايم. ومادامت قد غيرت اسمها الأصلى الذى كان شلبية فقد كان لابد لها أن تبحث لعبدالدايم عن اسم آخر يضرب إلى التركية أو الارستقراطية. وعلى كل حال هى فى غير حاجة إلى هذا البحث. والذين يلتفون حولها لا يعنون فى قليل أو كثير باسم أبيها. فمادامت بهذا الجمال وهذه الرشاقة، ومادامت تستطيع دائما أن تضحك هذه الضحكة ذات الصليل، فهى فى غير حاجة إلى أب على الاطلاق.

فى بيت وجدى الكؤوس تدور، حتى لقد أصاب الكؤوس نفسها دوار من الخمر أو التنقل.. لا يهم.

وتلف أيضا على المدعوين غابة ينفذ من خلالها الدخان المخدور، والغابة لا تكف عن الدوران.

يعدها لهم فتى توسط حلقتهم، إن أنعمت فيه النظر، وأنت محتاج إلى إنعام النظر. فالدخان ضباب كثيف، والرؤية ليست ميسورة. وما هم فى حاجة إلى رؤية ميسورة، ولكن أنت لابد لك أن تنعم النظر. فإذا فعلت وجدت الفتى الجالس الذى يعد المخدر هو جابر عبدالبديع. أتذكره.. ما إخالك ألا تذكره.. إنه زوج هالة وهو نفسه أخو حامد.

* * *

باع حامد من أرض يحيى تسعين فدانا، وكان القانون يبيح للأسرة ثلاثمائة فدان. فكان لابد أن يستولى الاصلاح الزراعى على مائتين وسبعين فدانا.

- إذن نسلم الأرض.
- يحيى بك أهذا كلام؟
- وهل هناك كلام آخر؟
- هذا شغلى أنا.
- وهل هناك شغل أيضا فيما يفرضه القانون؟
- القانون صديقى، وأنا أعرف كيف أتصرف معه.
- حتى القانون أصبح صديقك؟!
- مؤكد.
- كيف؟
- من الذى يطبق القانون؟
- القضاة.
- هذا فى القضايا العادية. أما فى الاصلاح الزراعى فهناك جهات كثيرة قبل أن نسمع كلمة القضاء هذه.
- آه فهمت!!
- ومن يفهم إذا لم يفهم يحيى بك؟
- إذن نتفق على الأتعاب.
- أنت مصر على تسميتها أتعابا!
- سمها أنت كيف تشاء.
- أحب أن أسميها هدايا؟
- لتكن إذن هدايا.
- كم أهديتنى عن الأرض التى بعتها عنك؟
- ثلاثين جنيها عن الفدان؟



- ستكون الهدية فى هذه الفدادين.

وقبل أن يكمل جملته دخلت بهيرة:

- أتعملان..؟

- نعم.

- إذن أترككم؟

- وهل هناك عمل يخفى عليك. تفضلى يا بهيرة هانم؟

- وهو كذلك.

- وقال يحيى:

- لم تقل هدية الفدادين الباقية.

- أقولها لك غدا فى التليفون.

- كنت على وشك قولها.

- لم أكن أنوى أن أقول الرقم.

- فماذا كنت تنوى أن تقول؟

- كنت سأقول اننا سنجعلها هدية واحدة لكل الأرض مرة واحدة.

- لا بأس.

- ولن آخذ شيئا إلا بعد أن تطمئن إلى قبول التصرف من الجهات المختصة.

- موافق.

* * *

حين دق جرس التليفون ردت بهيرة:

- بهيرة هانم؟

- أنا.

- أنا حامد عبدالبديع.
- مرحبا يا أستاذ.
- أنا سعيد الحظ جدا.
- كذا.
- وهل فى هذا شك؟
- شك كبير!!
- لماذا لا قدر الله؟
- بالأمس أنهيت الحديث بمجرد دخولى.
- وهل تهمك هذه الأعمال؟
- أليست أعمال زوجى؟
- أنا تحت أمرك.
- يا أستاذ حامد زوجى لا يخفى عنى شيئا أبدا.
- وهل معقول أن شخصا له زوجة مثلك يخفى عنها شيئا؟
- أهذا رأيك؟
- هذا جزء من رأيى يا أفندم.
- الجزء الأول.
- لا.. هذا الجزء العشرون والأخير.
- وماذا عن الجزء الأول؟
- الجزء الأول خاص بالجمال والأنوثة.
- كفى كفى!!
- حضرتك التى سألت يا أفندم.

- من معك؟
- وهل معقول أن يكون أحد معى وأنا أتكلم عن هذه الأجزاء؟
- متى سنراك؟
- أمرك.
- الليلة.
- تحت أمرك.
- يحيى بك موجود؟
- أيهمك وجوده؟
- المهم وجود حضرتك.
- الساعة السادسة اليوم.


١٩

ناهد فكرى سيدة عجيبة فى المجتمع المصرى. إنها ليست من طبقة الأمراء. وأبوها ليس وزيرا ولا هو رئيس وزارة. إنما هو رجل عاش عمره يؤدى عمله كموظف فى وزارة المالية.

وكان طريقه فى الحياة يفرض عليه أن يعرف ذوى الشأن فى السياسة والمجتمع. ولكنه هو نفسه لم يكن يحب أن يخوض المجتمع أو يدعى السياسة. وهو رجل موظف. وهو موظف أمين شريف لم يسمع أحد عنه شيئا يشوب سمعته بسوء. وزوجته هى ابنة عمه وجدان هانم قرنى، وقد كانت سيدة من خيرة السيدات ليس لها فى الحياة إلا زوجها، وبيتها وابنتها ناهد وابنها سعيد، وكانت السيدة لا تترك سجادة الصلاة إلا لتقوم بشئون بيتها، وكان من الطبيعى أن يرسل الأب ابنه وابنته إلى المدرسة، فقد كان من هذا الجيل الذى اعتبر التعليم ضرورة لا غنى عنها للفتى أو الفتاة على السواء.

وأتم سعيد الدراسة واشترى له أبوه سيارة، فإن موارده لم تكن قائمة على مرتب الوظيفة، وإنما كانت الوظيفة لمجرد أن يكون موظفا، فقد كان

يجل نفسه أن يكون بلا عمل مهما يكن غناه هذا الغنى الفاحش الذى تركه له والده.

لقد كان فكرى الزينى يملك ثمان عمارات إلى جانب تسع قطع أرض فضاء جميعها صالح للبناء، وكانت كل قطعة منها لا تقل عن العشرين فدانا، ويصل بعضها إلى خمسين فدانا. ولكن فكرى لا يتصور أن تكون وظيفته فى الحياة مالكا فقط.

فقد كان يرفض أن يرود المجتمعات، ويرفض كما ذكرت لك أن يعلم بالسياسة. فإذا خلت حياة الغنى من مجتمع أو سياسة أصبحت فراغا لا يطيقه أحد.

لم يكن عجيبا إذن أن يشترى فكرى لابنه سعيد سيارة، ولم يكن غريبا أيضا أن يختار سعيد أفخم سيارة فى ذلك الحين، وقد كانت «باكار»، وكان لها غطاء يرفعه عن نفسه أو يسدله كيفما يعن له.

ولكن فكرى لم يقدر أن ابنه حين اشترى السيارة كان قد أعد لنفسه الوسيلة التى يموت بها.

هكذا شاء القدر، ونزلت الفاجعة عليه وعلى زوجته قاصمة توشك أن تخلع جذورهما من الحياة، ولولا أن تعلقا بالإيمان، ولولا هذا اللطف الخفى الذى تبطن به السماء الفواجع لكان الجنون أقل ما ينتظر الرجل الطيب وزوجته المتوكلة على الله.

وهكذا انفردت ناهد بوالديها، فكانت تصنع كل ما لا تستطيع فتاة فى سنها وفى مجتمعها أن تفعله.

الملابس غاية فى الفخامة. السيارة دائما من آخر طراز. الزينة يقوم بها أعظم المتخصصين وأدوات الزينة تأتى من أعظم الأنواع، وإذا لم تسعفها بها القاهرة، وقد كانت من أعظم الأسواق العالمية، أسعفتها بها باريس أو لندن أو أى بلد فى العالم.

وامتدت صداقات ناهد مع كل رواد المجتمع الذى كانوا حينذاك من بنات وأبناء الأمراء. فإن تواضعوا فمن أبناء وبنات رؤساء الوزارات أو الوزراء

أو وكلاء الوزراء، وقد كانوا فى هذه الأيام ذوى طنين ويمكن أن يكون رواد هذه المجتمعات من مجرد الأغنياء، ولكن حتما عليهم حينئذ أن يكون آباؤهم وأمهاتهم هم أنفسهم من رواد الصالونات يدعون إلى بيوتهم كما يدعوهم الناس، وإلا فلا مكان لهم أو لأولادهم فى هذه الأبهاء..

ولم يكن فكرى ولا كانت الست وجدان ليفكرا أن يرودا هذه الصالونات، ومن المؤكد أن أحدا منهما لم يكن يفكر أن يدعو إلى مثل هذه الحفلات.

ولكن العجيب، وهذا ما جعلنى أبدأ هذا الفصل، أن السيدة ناهد سيدة عجيبة فى المجتمع.

كيف يسمح أبوان لا شأن لهما بصالونات المجتمع ومباذله لابنتهما أن ترود هذه المجتمعات ولا يمنعاها.

وكيف استطاعت هذه الفتاة بمفردها ودون عون من دعوات توجهها مثل الدعوات التى تتلقاها أن تفرض نفسها على المجتمع بهذه القوة وهذا الجبروت.

لا يستطيع المجتمع أن يدعو جميع أعضائه فى كل دعوة.. وإنما هناك دائما نوع من الاختيار، والذى دعى هذه المرة عند فلان يستطيع فلان آخر ألا يدعوه فى المرة اللاحقة.

إن أى بيت من البيوت التى تصطنع هذه الدعوات لا تستطيع أن تحتمل أكثر من عدد معين يمثل على أحسن تقدير عشر هذا المجتمع، أو واحدا على عشرين منه.

ولكن مهما تكن الدعوات قليلة، ومهما يكن البيت صغيرا، فلابد أن تتصدر الليلة ناهد فكرى.

أى سحر فيها؟

إنها جميلة. لاشك فى ذلك، ولها هذا العطر السحرى الذى يجذب العيون والقلوب. فهو عطر ممزوج بجسمها تكون معها، وهى بعد جنين لا تشتريه ولا يستطيع أحد أن يشتريه، فيه هذه الخاصية التى لم يستطع أحد أن يكشف سرها وإنما هى تأسر فى غير عقل وتستولى على المشاعر

فى غير منطق. وكل ما عليها من عطور وملابس وما صنعه البشر بشعرها من تلافيف أو بوجهها من زينة لا قيمة له مع هذا العصر الذى منحته لها الطبيعة والذى لا يعرف أحد مأتاه والذى نحمد الله أن أحدا لا يعرف مأتاه، وإلا أصبح الرجال جميع الرجال عبيدا أو مجانين، وأصبحوا جميعا - ولا شك فى هذا - عصاة.

ولكن أهذا العطر هو الذى يجعلها تتصدر الحفلات جميعا.. كيف؟.. إذا قبلنا ذلك فى الحفلات التى يقيمها الرجال فكيف بنا أن نقبله فى الحفلات التى يقيمها النساء.. إنها هناك مهما يكن جنس الداعى رجلا كان أو كانت امرأة، عجوزين كانا أو كانا من الفتيان..

وهذا السحر فيها تمتاز به اثنتان أو ثلاث فتيات أخريات. وهن أيضا يستقبلن الدعوات. وحين يجتمعن ينشق الحفل عن مباراة فى الجمال والأنوثة لا يهم أحدا من الكاسب فيها ومن الخسران. فالمؤكد أن المدعوين جميعا هم الكاسبون.

ولكن أولئك الفتيات كثيرا ما تؤجل دعوتهن، وكثيرا ما تخلو منهن الحفلات إلا ناهد.. إنها دائما هناك.. هذا هو العجب..

والمجلات تتابع هذا المجتمع فى اصرار ومازالت تتابعه.. لم تستطع ثورة حطمت كل المعايير والمقاييس والقيم القديمة أن تحطم أهون ما فى هذا المجتمع من متابعة المجلات لأخبار الصالونات.

وقد هشمت الثورة من كان يؤم هذه الصالونات، ولكنها فى نفس الوقت خرجت للصالونات قوما آخرين.

وإن كان المجتمع المهشم قد أدرك معنى الصالون ومعنى الأبيسون والشينوا، ومعنى الرفق فى الغزل، والكلمة تهمس ولا تقذف، واحتساء الخمر بحذر حتى لا يفلت الزمام إلا قلة هزيلة منهم كانوا مرضى. وإن كان المجتمع الذى هشمته الثورة يعرف معنى الموسيقى الحالمة أو الصاخبة، ويعرف كيف يمسك بأدوات الطعام الفضية أو الكريستوفل أو المستجلبة من شيفيلد وميبيل أندوب، ويجيلها على الأطباق السفر أو

الليموج فلا تسمع لها إلا همسا كهمس المحبين.

فإن المجتمع الجديد يعرف كيف يشترى أغلى الأشياء، ويقذف بها فى صالوناته لا يفكر فى مواءمة بعضها لبعض. فهذان كرسيان حديثان غاية فى الغلاء موضوعان إلى جانب أريكة أبيسون! وهذه منضدة من النوع الحديث المرتفع الثمن إلى جانب كرسى مرسوم على نمط لويس السادس عشر. والخمر فى المجتمع الجديد أنهار، والشاربون يعبون عبا ويعلون وينهلون ولا يحتسون، فهم يريدون أن يسكروا لا أن يشربوا، والمجتمع الجديد يخصص حجرات للمخدر ذى الدخان أو المخدر الذى يبلع. فالسكر عندهم هو الغاية، وهم يملكون إليه الوسيلة.

والأطباق غالية الثمن، والأدوات مازالت فضية، ولكن إذا مد الطعام نشبت أمامك معركة بين أدوات الطعام والأطباق.

وعلى الحالين المحلات عندنا تهتم بهذا المجتمع. كانت تهتم بالمجتمع الراحل، وهى اليوم تهتم بالمجتمع الذى أخذ مكانه.

وفى أى مجتمع تسطع ناهد فكرى لتكون نجمة كل المجلات، فإذا هى فى بعض عام أعظم شهرة من كواكب السينما جميعا.

وحين اقبل الاصلاح الزراعى كان أبوها قد انتقل إلى العالم الآخر بعد أن جعل ناهد مالكة لكل ما يملك، وحين أصبح المجتمع الجديد هو المجتمع المتعمد المعترف به، راح مجتمع ناهد القديم يلملم أذياله ويتخفى فى التياع، ويبتعد عن أضواء آلات التصوير، بل عن أضواء الشمس إذا استطاع.

والعجب أن ناهد استطاعت فى مقدرة فائقة أن تغرب من المجتمع القديم لتشرق فى المجتمع الجديد، وإن كانت فى المجتمع القديم كانت شمسا مع ثلاث شموس أو شمسين، فهى فى هذا المجتمع شمسه الرفيعة المتألقة التى تنفرد بسمائه.

تلك هى قصة ناهد مع المجتمعين.. ماذا عن ناهد فى بيت أبيها ذلك الرجل الجاد وأمها تلك السيدة الودود التى لا تعرف إلا البيت والصلاة.



كان أمر الوالدين عجبا. حاولا بكل ما يملكان من جهد أن يقفا بين ابنتهما وبين الطريق الذى اختارته، ولكنها كانت كالفرس الجموح. وحين طالت المناقشات بينها وبين أبويها وأوشكت أن تضيق بها، وجدت وسيلتها من قريب.

كان وجدى موجودا فى كل دعوة تلبيها ناهد. وكان جماله الواضح يجعله دائما ملتقى اهتمام. وكان وجدى قد أعد نفسه لهذا المجتمع فعرف كيف يكون سهلا فى حديثه يسير به على سطح الأرض ولا يغوص فى أعماقها. إن دخل فى نقاش استطاع أن يقنع كل من يحادثه أنه صاحب الرأى الحق. وهكذا كان يترك الآراء تشتجر وتتشابك وهو يقف منها موقف المؤيد لكل رأى. فقد أدرك من المجتمعات التى هيأتها أمه أن من لا رأى له هو أقرب الموجودين إلى قلوب الحاضرين.

ولكل إنسان فى الحياة هدف ومتجه، وما كان وجدى ليفكر مطلقا أن يكون صاحب مكانة فى الحياة العامة. وإن كان هذا المجتمع بالذات هو غايته وهدفه حتى شهادة الحقوق التى حصل عليها كان يعتبرها وسيلته إلى هذه المجتمعات وليست وسيلته - لا قدر الله - إلى قضاء، واقفا كان هذا القضاء أو كان جالسا.

وحين شب وجدى عن الطوق، وعرف قصة ميلاده، تقبلها فى هلع أول الأمر، ثم أمعن النظر فيها، فإذا هو يخرج بها إلى رأى استقر عليه وارتاح له. لقد أعجب بأمه غاية الاعجاب، فليس عليها من بأس فى رأيه أن تصل بينها وبين أبيه عزت وهو من هو جمالا. لقد رآه حين زحفت الغضون إلى وجهه، لم تستطع أن تعدو على جماله. وحين مات عزت فكر أن يسير فى جنازته، ولكنه خشى أن يتغامز عليه المشيعون، فاكتفى بدموع تحدت من عينه فى طى الكتمان، ولم يكن يدرى يومذاك لماذا يبكى، فأبوة عزت له أبوة أساءت إليه أمام الناس ثم هو لم يشعر منه بحنان. وجمود الأبوة يجعل الأبناء يكرهون آباءهم أكثر من كراهيتهم لأعدائهم. فالمفروض أن العدو لا يرحم، والمفروض أن الأب رحمان وعطوف وحنون، كله اشفاق وقلب يخفق

بابنه، وروح ترفرف حيث يتحرك أبناؤه.

فإذا لم يرحم فقد خرق نواميس البشر، وإذا قسا بغير عدالة فقد قلب واقع الأفلاك. أما إذا جحد ابنه فكان عنده هملا لا وجود له. فهو قد مزق أستار البشرية، وانحط إلى درك الحيوان.

ولكنه بكاه..

كان وجدى إذن يرى أن لا بأس على أمه أن تقيم بينهاوبين أبيه عزت صلة. فشأن السيدة المطلقة أن تبحث عن سند لها فى الحياة. وإذا لم يتوافر السند الشرعى فإن وجدى يرى أن لا بأس عليها أن تبحث عن سند غير شرعى. فإذا كان جميلا فالعذر إذن ممهد لها.

ويرى وجدى أن أمه كانت ذكية حين ألحقت نسبه إلى عبدالمحسن باشا. فهى تختار لابنها.. ومن حقها أن تختار له.. الأب الأحسن.. ومن أحسن من عبدالمحسن باشا.. وجعلت الطفل شرعيا أيضا.

وليقل الناس بعد ذلك ما يقولون.. لقد فاز بناء على حكم القضاء بأب باشا وبثروة جديرة بالباشاوات. وهكذا استطاع وجدى فى قدرة لا تتأتى إلا لنوع خاص من البشر أن يعجب بأمه لأنها ذكية ويعجب بأبيه الذى صنعته له المحكمة لأنه باشا، وبأبيه الذى فرضته عليه الحقيقة، والطبيعة وأحاديث الناس، لأنه جميل ولأنه قادر على أن يجعل النساء يحببنه. فوجدى فى نظر نفسه يجمع المجد من ثلاثة أطراف أن كان أهل المجد. والشاعر الذى تحدث عن أطراف مجده يجمعون المجد من طرفين اثنين على أكثر تقدير. والغالبية العظمى أن كان لهم مجد يتفاخرون به فهو لا يزيد على طرف واحد.

وخاض وجدى المجتمع بهذه الثقة الهائلة بنفسه وبميلاده، وكثرا ما كان يغبط نفسه، لأن الكثيرين ممن يخوضون هذا المجتمع يحتاجون إلى جهد جهيد من ثقافة خاصة، ودربة فى التعامل، وممارسة لهذه الحياة، واختلاط بالأسرات، وزمن طويل حتى يتحقق لهم آخر الأمر شهرة بين أبناء هذه المحافل، أما هو فقد وجد شهرته سبقته إلى محافل هذا المجتمع جميعها

ولم يكن يضيق حين تعرفه بعض السيدات بأخرى قائلة وجدى ابن نجاة، مقنعا نفسه أن الأم صديقة السيدات، ومن الطبيعى أن ينسب إليها عندهن، ولا يريد وجدى أو هو لا يهمه أن يتشكك فى السيدة التى تقدمه على هذه الصورة أنها إنما تتخلص من حيرة بين الحقيقة القضائية والحقيقة التى تعرفها هى ويعرفها الجميع. ويؤكدها هذا الشبه بين الابن وبين أبيه الحقيقى. قالت له ناهد

- أظن اننى كبرت وأنت أيضا على هذا اللف والدوران؟
- أى لف ودوران؟
- وكبرنا أيضا على الاستعباط!!
- والنتيجة؟
- قل أنت ماذا تريد.
- مادمنا قد وضعنا شروطا اللعبة فيجب علينا أن نلتزم بها جميعا.
- حسنا.. لن ألف معك.. أهى محاولات منك لاجتذابى إليك أم أنت جاد فى الغزل، وهذه النظرات التى أصبح الجميع يتندر بها.
- هذا يتوقف على معنى الجدية.
- لا يختلف اثنان فى معناها.
- و لكن نحن قد نختلف.
- أمختلفان عن الناس؟
- المؤكد أننى لم أسمع أن مثل هذا الحديث دار بين اثنين قبلنا.
- لأنك دائما تدير أحاديث أخرى.
- وأسمع أحاديث أخرى أيضا.
- استطعت فى فرح هالة فقط أن تقيم علاقة بينك وبين بهيرة.
- أمازلت تذكرين؟
- أنا لست مثل بهيرة.
- هذا مؤكد.
- أنا أعرف انك طلبت أن تتزوج بهيرة.

- أمى التى طلبت.
- لم يكن حبا إذا؟
- بداية استلطاف.
- والذى تفعله معى الآن.
- ماذا تريدينه أن يكون؟
- أنا لا أمانع فى الزواج.
- وأنا أرحب به.
- على شرط.
- كل الشروط مقبولة.
- أن يعيش كل منا بالطريقة التى تروق له.
- أمعقول أن تقولى هذا؟
- هذا ما سأفعله.
- فى استطاعتك أن تفعليه دون أن تذكريه.
- لا أحب الخداع.
- ربما كنت أحبه.
- لعلك احتجت إليه.
- كل الناس تحتاج إلى بعض الخداع.
- ولكن بعض الشروط تحتاج إلى الخداع الدائم.
- لقد قبلت الشرط.

ولم يتردد فكرى فى قبول خاطب ابنته رغم أنه يعرف كل شىء عن تاريخ حياته، بل إن وجدان هانم رحبت بوجودى. فقد كان الأب والأم كلاهما يخافان كل الخوف ألا تتزوج ابنتهما بعد أن أصبحت حديث المجلات وأبواب المجتمع. وكان فكرى بك فى أخريات أيامه، وكان يخشى كل الخشية أن يترك ابنته بلا زوج فيزداد سفورها على الحياة. وهكذا تم الزواج فى سرعة. واستقلت ناهد ببيتها، ولم تعد رقابة أمها أو أبيها تلاحقها.

وسرعان ما استقرت الحياة بينها وبين وجدى بل سرعان ما تفاهما. لم يكن طريقهما متباعدين. كان الطريق واحدا ولكن كلا منهما كان يسلك الطريق لحسابه الخاص.

لم تمض شهور على الزواج حتى كان فكرى الزينى قد لقى ربه، ولم تمض شهور أخرى حتى صدر قانون الاصلاح الزراعى، وشمر وجدى عن ساعد الجد، وشمرت معه ناهد، فإذا بيتهما ملتقى الأرباب الجدد، أو أنصاف الأرباب من الأتباع، واستعملت ناهد كل وسائلها من سحر الأنوثة وعطر السماء، وتخاضع اللفظ واختيار الاشارة، ورسم الابتسامة، وافتعال الغضب، واصطناع الحفلات، وصناعة الابهار.

واستعمل وجدى كل ما حبته به الطبيعة من اصطناع الغباء، وقبول كل الأوضاع، وتوطيد الصداقات مهما يكن ثمن الصداقة من عرض أو سمعة. فما يعنيه العرض، ولا قيمة عنده للسمعة، فهو من هو عرضا وسمعة بحكم الميلاد.

لقد كانت ثروة أبيه من الأرض الزراعية، وقد استطاع بمواهبه هذه أن يبقى عليها كاملة لم يتسلم منها الاصلاح الزراعى شيئا، وقد أعانه على تلفيق الأمور حامد عبدالبديع.

ومن هذه الأبواب التى تفتحت لحامد على يد وجدى وأخيه جابر الذى كان على صلة قديمة ببعض الأرباب الجدد، استطاع حامد أن ينقذ أرض يحيى، ويتقاضى ثمنا لذلك عشرين فدانا من أرض يحيى يصحبها أيضا عرض يحيى.


٢٠

لم يكن أسامة يتصور حين حصل على شهادة الحقوق أن يتجه إلى ما اتجه إليه. فقد بدأ حياته بأن تمرن فى مكتب المحامى الكبير صديق والده مهران باشا عبدالفتاح، وقد استطاع أن يعرف فى هذا المكتب الكبير كيف يكون المحامى كبيرا. فأسامة يجيد الفرنسية، وهكذا كان يستطيع دائما فى كل القضايا أن يرجع إلى أهم المصادر، وقد علمه مهران باشا كيف يتناول القضايا، ويتعامل معها، ويغوص فى أدق ما تخفيه أوراقها.

وما هى إلا شهور حتى تبين مهران باشا أن أسامة يملك موهبة المحاماة. وأدرك أن أسامة يستطيع أن يكون امتدادا لأجيال العباقرة من المحامين أمثال عبدالعزيز فهمى ومرقص حنا والهلباوى ووهيب دوس وعلوبة ومرعى إلى آخر هذه الأسماء التى وطدت دعائم المهنة الخطيرة وأرست أركانها فى مصر وفى الشرق العربى.

وقد أدرك أسامة أن علمه باللغة الفرنسية سيمكنه أن يكون محاميا عملاقا فى القضايا المدنية. فهى التى تحتاج إلى البحث والرجوع إلى

المصادر الأصلية للقانون.

وراح أسامة يخطو خطواته الأولى، ولكن قليلا ما خطا.. فسرعان ما انقلبت موازين المجتمع كلها.. ولم يصبح للقانون المدنى مكان فالقانون المدنى يقوم أساسا على أن للمال حرمة، والدولة هى التى تحمى هذا المال أن يستلب بطريق غير مشروع.

فحين تستلب الدولة نفسها هذه الأموال، وتصدر القوانين بالحراسة والمصادرة لاستلابها تسقط حرمة المال، ويصبح اختطافه والاستيلاء عليه بغير حق هو الأصل، وتصبح حرمته واحترام حق الانسان فيه استثناء لا يقاس عليه ولا يتوسع فيه.

وفى ظل هذه الشرائع الجديدة من سقوط الشرعية ينزوى القانون خزيان ينظر ويتحسر وتدمى جراحه ولا ينطق. فالقانون هو الشرعية فإذا استبيحت الشرعية اندثر القانون. وهكذا أصبح القانون المدنى تاريخا يروى عنه كفترة من الزمان كانت ولم تصبح ومرت ولم تعد توجد. وتخلو الحياة من القانون. وتخلو أيضا من العاملين فى القانون.

وهكذا كان من الطبيعى أن يبحث أسامة لنفسه عن عمل جديد. لم يتصور أنه يستطيع أن يتوظف. فقد تعلق بالمحاماة وأحبها ورسم مستقبل حياته على أن يكون محاميا. وقد قضى السنوات التى عمل بها فى المحاماة فى توطيد أركانه فى ميدان القانون.. والقانون المدنى بالذات. حين رأى القانون المدنى يحتضر حار به الطريق وأشكلت أمامه المناهج، لم يعد يدرى إلى أى مصير يصوب غايته.

كان قد خلف مهران باشا فى المكتب فى صفقة مالية معتدلة جديرة برجل كبير مثل مهران باشا، وبشاب غنى مثل أسامة، وفى الأيام الأولى لاستقلاله بالمكتب بدأ الانهيار القانونى فى الحياة المصرية، وأصبح أسامة يتابع القضايا القديمة فى المكتب ويقينه يزداد كل يوم أنه لن يجد قضايا جديدة.

فاسم المكتب كبير، ولا يؤمه إلا أصحاب القضايا الكبيرة، وهؤلاء

زالوا تماما من الحياة المصرية مضيعين بين المصادرة والحراسة. وباسم الحراسة والمصادرة اغتالت الدولة الغالبية العظمى من أصحاب المال بقانون، فكان شأنها مع هؤلاء شأنا فريدا. فالسارق يعاقبه القانون ويسترد منه المال، أما إذا اغتصب القانون نفسه المال فى حماية من قوة الدولة وسلطانها، فإنه حينئذ يصبح اللص أشرف من الدولة، وتصبح السرقة أشرف من القانون. فلم يكن غريبا أن يدرك أسامة أن المكتب إلى افلاس. وإن كان هناك بعض محامين صغار يروحون ويجيئون فى المحاكم. فإن هؤلاء إنما يترافعون فى قضايا صغيرة، لا تستطيع أن تقترب من باب المكتب الكبير.

كان أسامة واثقا أنه لابد له أن يبحث عن طريق آخر، وكان وثوقه هذا يزداد فى كل يوم ايقانا.. أين إذن الطريق.. فكر أن يكتب لجميل فى الكويت، أو لصبحى فى السعودية لعل واحدا منهما يستطيع أن يجد له عملا هناك. فهو لا يطيق البطالة حتى وإن كان موفور المال.. كان فى ذلك اليوم أوشك أن يصمم على كتابة الخطاب ولكن وكيل المكتب يدخل إليه.

- زوجة محمدين تطلب أن تراك.
- عم محمدين.
- قالت إنك تعرفها.
- أدخلها فورا.

وقام أسامة وراء وكيله وفتح باب مكتبه وهو يصيح:

- أهلا أمه مرسيلة.
- أهلا بك يا ابنى.
- أين أنت..؟
- فى الدنيا.
- تفضلى.

وتدخل السيدة العجوز، ويجلسها أمامه على كرسى قريب من مكتب،

ويجلس أمامها كما يفعل مع كبار الزوار. إنها زوجة عم محمدين الذى كان مع أبيه وجده والذى لقفه على كتفيه. وكان عم محمدين قد مات منذ سنوات، وسأل أسامة زوجته هذه التى يناديها أمه مرسيلة إن كانت تريد مرتبا شهريا أم تريد مبلغا واحدا مرة واحدة، ففضلت المبلغ الواحد فأعطاها ألفى جنيه، وطلب إليها أن تقصد إليه فى أى لحظة إذا احتاجت إليه، وكانت والدته منذ فترة تطلب إليه أن يسأل عنها. وذهب فعلا إلى البيت الذى كانت تقيم فوجدها قد تركته، ولم يعد يعرف عنوانها فكان فرحه بمجيئها طبيعيا، فقد كان يريد أن يطمئن على أحوالها، وهى فى هذه السن المتقدمة كما كان يريد أن يطمئن أمه عليها.

- لقد وقعت من السماء.

- أتلقاك بعينى يا أمه مرسيلة.. أين أنت؟ لقد ذهبت إلى..

- سأحكى لك.. حين أخذت منك المبلغ كان عمك محمدين قد اشترى أرضا بحلوان، وهو يعمل مع المرحوم والدك قلت أضع المبلغ فى بناء بيت يسترنى أنا وابنى راشد وزوجته.

- راشد تزوج.

- لم يكن أيامها متزوجا ولكن قلت فى نفسى انه لابد سيتزوج.

- معقول.

- وتزوج فعلا. واسم النبى حارسه تعلم ميكانيكى.

- سيارات.

- سيارات وكل الماكينات، واستطاع واحد من أصحابه أن يعينه بشركة من شركات الحكومة.

- عظيم.

- أنا أجرت شقة فى حلوان لأكون بجانب البيت، وهو يبنى، وراشد تعين.

والحمد لله أصبحت الحالة ميسورة، وتزوج راشد بنت حلال من أربع سنوات، وعنده الآن ولدان على وحسين.

- باسم الله ماشاء الله..

- تعيش.. ما أدرى من يومين إلا وواحد من أصحاب راشد يدخل على عليّ ويخبرنى أنهم قبضوا على راشد.

- ماذا.. لماذا؟

- قال صاحبه انه كان فى مظاهرة.

- مظاهرة.. وهل هناك مظاهرات الآن؟

- يا ابنى والله لا أعلم.. قال عن البتاع الاشتراكى، وانه قال فى الاجتماع كلاما جعل الرؤساء يزعلون.. المهم الولد محبوس.

- أين؟

- لا أدرى.

- كيف؟

- ليلتين الآن لم يأت إلى البيت ولا أعرف له طريقا.

- من الذى قبض عليه؟

- سبحان العالم.

- طيب يا أمه مرسيلة تعالى أنت معى الآن إلى البيت.

- أروح يا ابنى. البنت امرأة راشد فتها فى البيت حالها ملخبط، ولا يصح أن أتركها وحدها.

- اسمعى.. تعالى معى، وسأرسل السيارة تأتى بزوجة راشد وبعلى وحسين أيضا.

- يخليك.. يطول عمرك.. يعمر بيتك.

- قومى يا أمه مرسيلة.. قومى.. هيا.. نينا ستفرح جدا لما تشوفك.. وأنت أيضا ستفرحين لما تشوفى مراتى نادية وابنى راشد وفهمى.

- محفوظ باسم الرحمن الرحيم تعيش الأسامى.. ولا تدعونى ياسى أسامة.. لقد شلتك على كتفى ولا أحضر فرحك.

- ربنا يعلم.. بحثت عنك بلا فائدة.. على كل نصلح الخطأ اليوم.. هيا بنا.



الخيانة ليست وليدة منطق، وإنما هى طبيعة فى بعض الناس، أو إن شئت الدقة هى طبيعة فى أكثر الناس، مثلما تجد الأمانة طبيعة أيضا عند قلة من الناس.

وقد تعانى المرأة من زوجها ما تعانى، ولكنها مع ذلك تظل شريفة دون أى منطق يدعو لهذا الشرف إلا أنها هى بطبيعتها شريفة، ولا تتصور أن الحياة فيها طريق آخر غير الشرف.

وليس صحيحا أن البنت لأمها كما يقول هذا المثل السخيف الذى يكفى القدرة على فمها دون أى داع، ودون أن يكون للقدرة أى دخل فى الموضوع إلا أن تكون مقدمة دون معنى لنتيجة لا صلة لها بالمقدمة، ثم هى نتيجة خاطئة.

فكثيرا ما عرفت الحياة فتيات شريفات غاية الشرف، وهن من أمهات لا يعرفن الشرف فى أى شىء.. وكثيرا، بل وكثيرا جدا ما أصبحت بنات غير شريفات وهن فى ذلك من أمهات كلهن شرف، وهكذا تجد نفسك فى غير حاجة أن تكفى القدرة على فمها لتطلع البنت لأمها، كما

يقول هذا المثل العامى الساذج.

ولكن لابأس أيضا أن تتعرض البنت لظروف مثل ظروف تعرضت لها أمها، فتجد البنت نفسها سائرة فى الطريق الذى سبقتها فيه أمها.

ولكن الموقف مع بهيرة ابنة شهيرة مختلف كل الاختلاف. وإن كانت النتائج متشابهة كل التشابه.

فشهيرة خانت زوجها، لأن زوجها كان يدعو الناس إلى احتقاره بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. فلم يكن غريبا إذن أن تبحث شهيرة عن أحضان تحترمها فخانت.

أما بهيرة فزوجها يفرض احترامه على الناس بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. أو هو فى الواقع يصطنع الوسائل غير المشروعة فى فرض هذا الاحترام. ذلك أنه يطالب بالاحترام بالتكبر لا بالكبرياء، وبالتظاهر لا بالحقيقة. فهو أجوف بلا علم، ومن أين العلم، وبلا تجربة ومن أين التجربة. وقد وجد نفسه فى بواكير الحياة من كبار بكوات المجتمع المصرى بغير ثقافة أو علم أو تجربة فى الحياة. وكانت البكوية التى صبتها عليه أمه بقوة المال وجبروته لا تتيح له أن يخالط أبناء جيله، ويحيا الحياة الطبيعية التى تجعل الانسان حين يكبر انسانا طبيعيا شأنه شأن الآخرين له تجاربهم، وله أيضا أخطاؤهم.

اعتزل يحيى الحياة قابعا بين جدران بكويته الباكرة وتكبره الكاذب فأصبح فراغا. ولهذا لم يكن عجيبا أن يقنع بالاحترام الزائف من ظاهر الناس، وإن خالطه الاحتقار، بل وان خالطته السخرية فى أعماقهم.

وبهذا التكبر وبهذا الارغام على الاحترام الموهوم عامل يحيى الحياة، وعامل أقرب الناس إليه زوجته بهيرة وابنيه باسل وشهاب.

وهكذا راح ثلاثتهم يبدون له الاحترام غاية الاحترام، ويكنون له الاحتقار غاية الاحتقار.

أما الزوجة فهى تحتقره للتكبر السخيف الذى يلازمه. فهو دائما

منفوخ الصدر يتكلم وكأنما كلامه وحى من السماء، ويخاطبها وكأنما يتنازل كل التنازل أن يمتد بينهما حديث.

وكم كان سهلا على بهيرة أن تبدى له الاحترام، وتشبع الغرور العجيب الذى ركب فيه، ثم هى بعد ذلك تصنع ما تشاء لتشعر أنها تنتقم من غروره، وأنها قادرة دائما على تحطيم كبريائه ولو فى نفسها. والحب لا يستطيع أن يماشى الاحتقار مطلقا. وهكذا أصبح من المستحيل أن تحب بهيرة زوجها. وإذا انعدم الحب من البيت فكل شىء غير شريف معقول وطبيعى.

أما ابناه فهما لم ينتبها إلى احتقار كبريائه إلا حين تقدمت بهما السن، عرفا آباء آخرين لأصدقائهما. وبالمقارنة تبين لهما أن أمر أبيهما عجيب.

لقد وجدا الآباء الآخرين يحبون أبناء هم، ويبدون هذا الحب فى أمور شتى. قد يبدو منهما الحب فى كلمة اشفاق، أو حتى فى كلمة تأنيب وانانية. أو قد يبدو فى منحة مالية، أو قد يبدو فى اهتمام بدراسة أو اشفاق او مرض. أما أبوهما فلا يبدى لأى منهما أى عاطفة. انهما يحبهما لاشك لكنه بصلفه وتكبره يختزن حبه ويضن به أن يظهر. إنه يستكبر أن يبين منه شيء. لعله كان ينتقم لنفسه أن أباه لم يظهر له حبه منذ بدأ هو يدرك الأشياء. أو لعله كان يظن أن الأجدر بالأب ألا يظهر منه حب. فمادام أبوه قد صنع هذا فهذا اذن هو المثل الأعلى. أما حب أمه له وتفخيمها لشأنه فهذا أمر مفروض، لأنه يرى نفسه فوق البشر، وأمه لم تزد على أن اعترفت بتفوقه وسموقه، وهو بعد إذا سأل نفسه فيم هذا التفوق أو ذاك السموق، سارعت إليه نفسه بالكثير من توافه الأمور التى تجعله يتأكد أنه صنف فوق البشر، وأنه انسان يسمو على الانسانية.

وهكذا شب باسل وشهاب فى منزل قاتم، الأم فيه تبدو تابعة للأب

وهى فى حقيقة الأمر الشخصية المتبوعة لا التابعة، لأنها استطاعت فى مهارة أن تجعل زوجها يصنع ما تشاء أن تصنع ببعض كلمات بسيطة من اشباع الغرور. ثم هى بعد ذلك تسحبه خلفها كيفما تريد. ويسير الأهبل خلفها وهو يظن نفسه يقودها وينفذ كل ما تشاء، وهو يظن أنها هى التى تنفذ كل ما يشاء، والابنان يكبران ويدركان هذه الحقيقة، فتنقلب موازين الحياة عندهما. ويكرهان أباهما لأنهما لم يريا منه شيئا يستحق الحب، ويعجبان من أمهما لأنها جعلت من أبيهما هذا المسخ الشائه وحين توثقت صلة الأب والأم بحامد عبدالبديع وجد باسل وشهاب فى حامد شخصية كريهة.

وربما كانت هذه الكراهية لأنه دخل البيت الذى لم يتعود أن يستقيم أحدا. فقد كانت الأم تريد أن تستولى على الزوج، وكان الناس بطبعهم ينفرون من الزوج. وهكذا كان البيت مقفل الأبواب دون الآخرين. لم يكن فى البيت مع الأب والأم سهير أم يحيى لكانت حياة الطفلين فى البيت جحيما. فالأم مشغولة بخططها المشروعة وغير المشروعة، والأب مشغول بغروره، ولا أحد يسكب على الطفلين حنانا إلا سهير. وربما أحست سهير أنها هى التى جعلت ابنها موسوما بهذا الجفاء والغرور، وكانت تعزى نفسها أنها لم تكن تتصور أن يتمادى فيه الغرور إلى هذا الحد، ولكن تلك هى مصيبة المشاعر فى نفوس الناس.. فإنها قبيحة كانت أو حميدة لا تعرف أين ينبغى لها أن تقف. وهكذا تصبح المشاعر القبيحة بالغة القبح، وتنقلب المشاعر الحميدة إلى شىء يدعو إلى الضجر أحيانا، أو السخف أو الملالة فتنقلب فى أحيان كثيرة إلى شىء كريه هى الأخرى.

وحين ماتت سهير كان الطفلان يشبان إلى بواكير المراهقة، وانقطع عنهما ذلك المنهل من الحنان فى وقت كانا فى أشد الحاجة إليه.

وحينئذ دخل إلى حياتهما حامد. وأحسا نحوه بذلك المقت وإن لم

يدريا لذلك سببا. وأغلب الأمر أن السبب كان فى داخلهما، ولكن حامد استطاع فى مهارة فائقة أن يقترب منهما. وقد كانت السبل مهيأة له من قريب.

لقد عرف كيف يعاملهما كرجلين، وراح يصحبهما معه إلى مزارع أبيهما كلما ذهب لعمل فى مزارع أبيهما أو فى مزرعته هو بعد أن أصبح مالكا لعشرين فدانا هناك.

وعرف أيضا كيف يكون واسطة لهما عند أبيهما، فاشترى كل منهما سيارة وهو يدخل إلى الجامعة.

وأصبح حامد قريبا كل القرب إلى قلب باسل وشهاب، ولم يكن ذلك غريبا فقد كان هو الانسان الوحيد الذى يدخل البيت دخول الأقارب. وقد استطاعت معاملة حامد هذه أن تفتح عين الأم على تلك الهوة التى تفصل بين الولدين وأبيهما، بل انها فتحت عينيها المروعتين على تلك الهوة هى وبين ولديها.

وهكذا راحت تتقرب إليهما، وتعمل على اسعادهما بكل ما تملك من قوة، ولكنها حرصت كل الحرص أن تكون مصادر هذه السعادة بعيدة عن الأب. فهى لم تكن تريد للولدين أن يحبا أباهما. فهى حريصة أن يدرك الأب أن أحدا لا يحبه فى هذا الوجود إلا هى.

وكان الوالدان يحسان بحنوها، ويحسان أيضا بهذا الحنو ينقلب إلى قساوة طاحنة كلما اقترب واحد منهما إلى ساحة الأب.

* * *

كان الوقت شتاء. وكان شهاب فى حجرته الخاصة يشاهد التليفزيون الذى أحضرته له أمه فى عيد ميلاده، ولم يكن معه باسل. ولم يكن ذلك عن جفاء، فقد كانت العلاقة بين الأخوين صداقة صحيحة فرضتها عليهما طبيعة الحياة فى بيت أبيهما أو قصر أبيهما إذا شئت. ولكن باسل كان قد اختار أن يتجه إلى الهندسة حين اختار شهاب أن يتجه



إلى الحقوق، فإن الصداقة بينهما لم تستطع أن توحد طريقهما فى الحياة.

وكان لكل منهما حجرته فى البيت، وكانت هذه الحجرة مجهزة بكل ما تصبو إليه نفس شاب. فلكل مكتبته الخاصة، ولكل جهازه الخاص للتليفزيون، وجهازه الخاص للراديو. فلم يكن غريبا أن يفترق الاخوان فى الساعات الأولى من الليل ليصنع كل منهما فى حجرته ما يحلو له.

كان التليفزيون فى تلك الليلة يعرض فيلما أجنبيا، وكان شهاب مستغرقا فى مشاهدته بعيدا عن واقع الحياة كل البعد.

وانتهى الفيلم، وانتهى الارسال أيضا، وقام شهاب إلى الباب ونظر إلى غرفة أخيه فوجد أنوارها مطفأة. فقد كان يحس أن النوم بعيد عنه. خاب أمله فى السمر مع أخيه، وأقفل الباب وعاد إلى مكتبته فوجد كتابا كان قد اشتراه ولم يفتحه وراح ينظر فى صفحاته. ا لفكر الماركسى والاسلامى. وكان عنوان الكتاب هو الذى اغراه بالشراء، فقد كان يحس كأبناء جيله أن النفاق من حوله يمكن أن يقلب جميع القيم والموازين، ولم يستبعد أن يجد منافقا يزعم أن الاسلام يبارك الماركسية، وكان هذا النفاق هو الحديث الذى لا تنقطع مصادره كلما اجتمع شباب. وأعتقد شهاب أن هذا الكتاب سيمده بمادة لا تنفد عن سيطرة النفاق المطلقة على الحياة المصرية، بل على الدين أيضا.

أعاد الكتاب إلى المكتبة، فقد كان فى نشوة لا تقبل أن تواجه هذا الانحطاط. بحسب الانسان المصرى أن يواجه النفاق فى الصحف وفى الحياة. لأن الانسان لابد له أن يقرأ الصحف، وأن يعيش الحياة. فإذا خلا إلى نفسه، وأحس بنوع من النشوة فينبغى له أن يحاول نسيان الصحف والحياة العامة وما يسودهما من نفاق، وإلا أصبح شخصا مولعا بتعذيب ذاته دون مبرر.

بحث عن رواية لكاتب يحترمه ووجدها ووجد فيها ما تصبو إليه نفسه

من انطلاق. واستلقى على السرير وبدأ يقرأ.. لم ترق له بداية الرواية. أقفلها وأطفأ نور السرير، وترك نفسه ترود ما يحلو لها من وديان الخيال أو الحقيقة، أو هما معا متمازجان تتماوج المعالم منهما متناغمة أو متنافرة، وهو ملق نفسه إلى الدفاع لا يكبح جماح الخيال، ولا يهتم بحقائق الواقع. ولم يكن يدرى أطال به الوقت أم لم يطل حتى سمع همسا وخطوات.. وعجب. فإن لكل حجرة من حجرات القصر حمامها الخاص، وليس هناك ما يدعو إلى صوت فى الليل أبدا.

قام إلى الباب وفتحه فى غير حذر، وفى اللحظة نفسها سمع صوت باب يقفل ثم رأى شخصا ينزل السلم المفروش بالبساط السميك، وعلى ضوء القمر الذى ينفذ كسهم القدر من شباك السلم رأى وجه حامد، هم أن يلحق به، ولكن قدميه تسمرتا، وحين استطاع أن يجرهما كان حامد قد خرج من الباب الرئيسى. ذهب إلى حجرة أبيه وفتح الباب ولم يفكر.

- بابا.

وقام الأب مفزوعا.. هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يتجرأ فيها أحد أن يفتح عليه الباب دون اذن سابق.

- من.. ماذا.. من؟

- هل أنت نائم؟

- هذا هو الطبيعى فى ساعة مثل هذه؟

- فماذا كان حامد يفعل هنا؟

- من؟

- حامد!

- حامد من؟

- حامد الذى لا يدخل بيتنا غيره.

- أجننت؟

- يا ليتنى جننت!

وجاءت الأم:

ـ ماذا؟

ـ اسمعى ما يقول ابنك.

ـ حامد نزل الآن من هنا،

ـ من؟!

ـ كنت أظنه يعمل مع أبى أو أنا على الأقل. تمنيت أن أجده يعمل مع أبى، ولكن أبى نائم.

أى امرأة غير بهيرة كان يمكن أن تنهار، ولكن بهيرة شىء آخر.. من المؤكد أنها طبيعة أخرى غير طبيعة البشر.

ـ اسم الله عليك يا شهاب! مالك يا ابنى؟

وراحت تجس جبهته.

ـ آه قل هذا.

ـ ماذا؟

ـ الولد نار.. ضع يدك يا يحيى.

ووضع يحيى يده. والعجيب العجيب أنه قال:

ـ فعلا.. فعلا عنده حمى.

ـ تعال ياشهاب استند على.

وفغر شهاب فمه ولم يستند على أمه، وإنما استندت هى عليه وسحبته، ولكن من ينظر إليهما يخيل إليه أنه هو الذى يسحبها، وذهبت به إلى حجرته، وقبل أن تدخلها سمعت باب حجرة زوجها وهو يقفل عليه، ودخلت مع شهاب إلى حجرته وأغلقت الباب وأرادت أن تلقى به إلى الفراش ولكنه كان قد أفاق من ذهوله.

ـ ماما! ماذا تفعلين؟

ـ تنام وتستريح وحبة اسبرين تصبح بكرة فى أحسن صحة.

ـ ماما! كيف استطعت أن تقنعيه اننى محموم؟



- لأنك محموم فعلا.

- ماما! ! !

- انتظر قليلا حتى أحضر لك الاسبرين وبعض الثلج.

- أخرجى من هنا.

- ماذا تقول؟

- أخرجى حالا قبل أن أعمل ما أريد أن أعمله..

- شهاب.

- أخرجى..

وأمام نظراته القاتلة خرجت بهيرة.

* * *

مسكين يحيى.. لم يكن ما قاله ابنه جديدا عليه.. كان يعرفه.. وفكر كثيرا.. كيف يمكن أن يعالج الموقف.. أيطلقها فتصبح الحقيقة مدموغة بورقة الطلاق الرسمية.. وهل تحتمل كبرياؤه هذا.. أيكلمها.. وتعرف أنه يعرف.. سكت واحتمل وكان كل أمله ألا يعرف أحد آخر.

واليوم عرف شهاب.. ماذا سيفعل شهاب؟

استطاع هذا السؤال البسيط أن يبقى يحيى مؤرقا حتى الصباح.

* * *

لم يقل شهاب شيئا لأبيه، ولكن العبء كان أكبر من أن يحتمله وحده. قال لأخيه.. وارتمى الأخوان فى دوامة قاتلة من الخزى والشعور بالمهانة.

- أبلغ تأثيرهما عليه إلى هذا الحد؟

- اسمع! إن أبى يعرف.

- ماذا تقول؟

- لا يمكن. لابد أنه يعرف.

- على كل حال ان لم يكن عارفا فقد عرفته أنا، ورفض أن يعرف.

- شهاب! ماذا ستفعل؟
- لا نعرف.
- كيف سننظر إلى أم عاهر، وأب ديوث، وصديق خائن؟
- نحن الآن لا نستطيع أن نفكر.
- لابد أن نفكر.. ماذا سنفعل؟
- نطلب منهما أن نعيش في بيت وحدنا.
- ربما يرفضان.
- لا تتكلم عنهما.. تكلم عنها وحدها. انها تفعل ما تريد.. هو لا شيء. بكل صمته المهيب وبكل عظمته المتجهمة هو لا شيء.
- إذن سترفض.
- لا تستطيع أن ترفض لنا شيئا الآن.
- لماذا؟
- بعد الذي رأيته.
- انها متأكدة انك لن تقول لأحد.
- فعلا. ولكن لماذا ترفض؟
- بماذا تبرر خروجنا من القصر؟
- إذن لا يدخل حامد هذا بيتنا.
- ولا هذا.. الظاهر أنك لا تعرف قيمة حامد.. انه صديق الحكام اليوم. وهو الذي يحمي بيتنا أن يؤخذ، وحمى أبي أن توضع عليه الحراسة.
- حراسة.. أيقبل هذا الوضع خوفا من الحراسة؟
- لا تبالغ في ظلمه. ربما قبله حتى لا يعرفه أحد.
- اسمع! لابد أن نجد حلا.. لن نستطيع العيش في هذا البيت، بل لن نستطيع العيش في مصر كلها.
- وجدتها.
- ماذا؟

- نسافر إلى الخارج.
- نهرب؟!
- نهرب.
- ولكن الحقيقة التى نعرفها أنستطيع أن نتركها هنا؟!
- هناك دنيا أخرى.
- ولكنها لن تستطيع أن تبتلع الحقيقة التى نعرفها.
- على كل حال هذا خير من أن نرى هؤلاء الناس.
- أى شىء خير من أن نرى هؤلاء الناس!
- إلى أين نسافر؟
- إلى فرنسا.
- ولماذا فرنسا؟ نسافر إلى انجلترا.
- أولا لأننا نتقن الفرنسية.
- وهذا سبب يجعلنا نسافر إلى انجلترا، حتى نتقن الانجليزية أيضا.
- الحقوق دراستها فى فرنسا، والهندسة أيضا. أما فى انجلترا فستكون دراسة الهندسة فقط هى الممكنة. فالقانون الانجليزى بعيد كل البعد عن القانون المصرى.
- لولا الظروف التى نمر بها، لكنت تركتك تسافر إلى فرنسا، وسافرت أنا إلى انجلترا، أما الآن فلابد أن نكون معا دائما.
- ومسألة اللغة بسيطة يمكن أن نقضى الاجازة الصيفية كلها فى انجلترا لدراسة اللغة.
- فكرة.

وسافر الاخوان وتركا القصر العظيم يضم بين أحنائه تكبره وخسته وجراحه وخيانته. ولم يقدرا.. وكيف لهما أن يقدرا أن القلب المتكبر الكسير لذلك الرجل الذى استطاع أن يكرهاه انصدع حطامه بسفرهما صدعا الموت أهون منه، ولكن طول التكبر منه عودة تلبس الكبرياء فانحنى على صدوع قلبه الذى أمسى شظايا.. وصمت.


٢٢

لا يستطيع أحد أن يقدر أثر الرواية المقروءة المعروضة على مسرح أو شاشة السينما أو التليفزيون أو المذاعة التقدير الصحيح.

فإن هذه الروايات أفسدت حياة الناس ونغصت عليهم عيشتهم تنغيصا فريدا حتى لا يجرؤ شيء آخر أن يسابقها فى هذا المضمار.

فقد ظلت هذه الأعمال التى نطلق عليها أعمالا فنية ترسم البيت السعيد رسما غاية فى السذاجة والعبط. فالزوجة تطعم زوجها بيدها، وتأتى له بالحذاء وتتولى شئون ملابسه، وتحاول دائما أن تضحك معه، ولا تطلعه على شىء يكدرها أبدا حتى لا يمتد الكدر إليه، وهى طبعا تطيع أوامره مهما تكن هذه الأوامر سخيفة. وتحرص هذه الأعمال الفنية أن تجعل حياة الزوجين جميعها على هذه الوتيرة الواحدة التى يتخيلها الكتاب السذج سعادة لا تدانيها سعادة، وهناءة لا تماثلها هناء.

وأغلب الأمر أن هؤلاء الكتاب يلقون من زوجاتهم عنتا ورهقا يجعلهم يهربون من واقع حياتهم النكد إلى دنيا يخلقونها بأحلامهم وأخيلتهم. وهكذا ليس بدعا أن تصبح دنياهم تلك التى يصطنعونها دنيا مهبولة تفيض سخافة وعبطا.

ولو وقف الأمر عند هذا لأصبح مقبولا. وأى ضير أن يهرب كاتب أو

أى شخص من واقع مرير إلى حلم وهم سعيد، مادام بهذا يقرعينا ويسعد.

ولكن الكارثة الكبرى أن المنتجين والمخرجين يأخذون الأمر مأخذ الجد، ويعرضون هذه الأعمال على الناس.

وهكذا تقولب الحب فى حياتنا فى هذا القالب المضحك، فالزوجة التى لا تطعم زوجها بيدها، ولا تطيع كل سخافاته، ولا تأتى له بالحذاء أو النعل، ولا تطبخ له كل ما تهفو إليه نفسه، تصبح عند الأزواج الذين شاهدوا هذه الأعمال أو قرأوها امرأة لا تعاشر. وهى فى عرفهم تكرههم ولا تحبهم. ومن الزوجات من صدقت هذه الصورة وحاولت أن تنفذها فى أيام زواجها الأولى. ولكن قليلا تنقلب حياة الزوج إلى جحيم، وليس هذا منه بعجيب. فقد رسمت له الأعمال التى رآها الجنة بهذه المعالم المضحكة. فحين يصطدم بغيرها يصبح من الطبيعى أن يرى حياته جحيما. فنقص أى معلم من معالم هذه الجنة الفنية هو عنده جحيم. وويل للزوجين إذا كانا تحابا قبل الزواج. فإن كلا منهما سيتوقع من الآخر أن يقتل نفسه وهو سعيد ليقدم لحبه كل ما يمكن أن يخطر ببال هذا الحب. حتى إذا تم الزواج، وعاد كل من الزوجين إلى طبيعة البشر، انكشفت الحقيقة الرهيبة، أن الرجل إنسان بشر، وأن المرأة إنسانة بشر، وتصطرع الحياة على أنغام نفير الحروب بعد أن كانت ساجية بين المحبين على أنغام موسيقى الملائكة.

وفى أتون هذه الأوهام تحطم كثير من حب كان صادقا، ولكنه كان مجنونا ودمرت زيجات كان يمكن أن يفوح منها عبير يانع عن أيام مخضلة بندى الحنان والمودة، ولكنها جهلت الواقع ولم تستطع الأيام أن تنقلب عندها إلى أحلام وأوهام ورؤى.

ولكن أسامة كان محصنا ضد الأوهام، فلو أن الحياة سارت بأبيه رخاء كلها، ولو أنه ترك لأمه وحدها لواجه فى كل متجه من حياته ذلك الحلم الباسم المستبشر الذى ينقلب إلى واقع كشر متجهم ذى أنياب ونصال ومدى.

لقد صاحبت نمو أسامة تلك الأزمة التى تعرض لها أبوه، ووعى أباه

وهو يركب الموتوسيكل السيدكار، وهو مايزال يذكر أمه وهى تعتذر عن عدم قبول الدعوات حتى لا تصبح مضطرة أن تردها بمثلها، ورأى بيته والطعام فيه معدود بقدر الأشخاص بعد أن كان دائما موفورا لا يحصيه حجما ولا عددا، حتى لقد كان الخدم يدعون من يشاءون من خدم الجيران. ورأى أمه تمكث السنة بأكملها لا تدخل بيتها خياطة، ورأى أباه لا يفكر فى شراء قماش جديد لنفسه سنوات، ولكنه أيضا يذكر أن ملابسه هو دائما كانت تتجدد، فلم تعد على مظهره اشارة من ضيق يد، وأدرك كيف كان أبواه يجنبانه دائما أن يحس بما يمران به. وحسب الجانبان أن ابنهما لم يشعر بشيء وحنا هو عليهما فلم يشعرهما أنه أحس بشيء.

ومرت بهم هذه الأيام النكدة الماجدة، واستطاع أسامة بضربة حظ أفلس فيها أبوه أن يصبح هو من أغنى الناس نفسا، واستطاع أن يعرف أن الحياة التى تعطى تستطيع أن تمنع، وأن الإنسان إذا لم يعرف من الحياة حالتيها صار فيها هشا هينا جاهلا أو أحمق تصرعه أى ريح من رياح الحياة.

ورياح الرخاء والغنى والدعة والهناء تحمل فى طواياها نفس الأخطار التى تحملها رياح الفقر والحاجة والعوز والشقاء.

وإذا كان الإنسان يحتاج أن يكون قويا ليواجه الحياة وهى تطحن وتفترس بمخالب الفقر، فهو محتاج أن يكون أكثر قوة ليواجه الحياة وهى تبتلع وتمحو من الإنسان إنسانيته حين تفرش الذهب والماس تحت الأقدام.

استطاعت هذه الفترة النكدة أن تجعل من أسامة إنسانا يعرف تقلبات الحياة، الأمر الذى لم يستطع المسكين يحيى أن يعرفه. فلو كان يحيى قويا فى لقاء الغنى لما انهدمت به الحياة، ولما تصدعت جوانب نفسه ولما خلت الحياة عنده من كل معنى للحياة.

فى هذه الأيام النكدة التى شهدها قصر راشد باشا كانت أسرة فهمى عبدالحميد من الأسرات النادرة التى تأتى للقصر أغلب أيام الأسبوع. وتوطدت علائق الصداقة بين خديجة وبين نعمات زوجة

فهمي.. وفي فناء القصر لعبت جميلة مع أسامة. كانت تصغره بعام وبعض عام، ولكنه لم يكن رآها قبل أن تصبح أمها صديقة لأمه.

لم يكن حبا ذلك الذى نما بينهما، وإنما كان ألفة وكان يأنس إليها، وكان يخيل له أنها تأنس إليه. ولم يكن يدرى يومذاك شيئا عن الصلات التى تجمع بين أبيها وأبيه. وما كان يستطيع أن يعى هذه الصلات ولا أن يفهمها.. وكيف لمثل من كان فى سنه أن يفهم هذه الحرب وهذا العداء، ثم هذا الحب وذلك الايثار، وكيف يستطيع أن يعى فى براءته الإنسان يسفل إلى هذه الخسة، ثم يعلو هو نفسه إلى هذه السموة.

لم يكن يدرى شيئا وإنما كان يأنس إلى جميلة وكان يألفها. وكان يحب أن تأتى ويحب أن يلعب معها طفلين، ثم أصبح يحب أن يحكى ما يجرى له فى المدرسة، ثم أصبح يحب حين باكرته الرجولة، ونهدت هى إلى الأنوثة أن يحادثها عن كل شىء ويستمع منها عن كل شىء.. وكانت تحس أن ما يقوله لها لا يقوله لسواها، وكانت تعرف أن ما تقوله هى له لا تقوله لسواه على براءة ما يقول وما تقول.

وحين تزوجا كانت بينهما هذه الألفة الحنون التى تكون بين الزوجين، ولم تكن الناحية المالية تشكل لهما أى عقبة، فقد استعاد راشد ثروته وكتبها جميعا باسم أسامة، ولو أن هذا لم يكن يعنى شيئا بالنسبة لأسامة فى حياة أبيه، فقد كان راشد هو الذى يتصرف فى كل دخله.

وقد تزوج أسامة وراشد مازال على قيد الحياة، وكان راشد سعيدا بهذه الزيجة أشد السعادة كما سعدت بها أيضا خديجة. وحين استقر الزوجان الصغيران بالمنزل تنازلت خديجة عن سيادة البيت، وجعلت لجميلة اليد الطولى والوحيدة فى ادارة البيت، وحلا لها أن تأخذ المكان الذى أخذته منها هانم أفندى حين تزوجت هى راشد، وسعدت خديجة بمكانها هذا الجديد، وقد استطاعت جميلة فى ذكاء أن تجعل خديجة دائما فى مكانة عليا أوامرها مقدسة وراحتها موفورة قبل أن تتوفر لزوجها أو حتى لحميها.

وحين مات راشد كان أسامة قد عمل فى المحاماة، ووجد نفسه فى مهنته، فاستطاع أن يكون حكيما فى تصرفاته المالية يعيش عيشة

كريمة، ولكنها بعيدة عن السفه.

وكان من الطبيعى أن تختلف جميلة وأسامة فى أيام زواجهما الأولى، ولم يكن أسامة يدهش أن يجد أباه وأمه يقفان إلى جانب زوجته حتى وإن لم تكن محقة. فقد وجدا عندها طاعة الأبناء وحبهم.. هذه الطاعة وذلك الحب الذى يصبح موضع اكبار إن جاء من غير الأبناء.

وحين مات راشد ظلت جميلة التى أصبحت ست البيت فعلا لا تفضلا أكثر عناية بحماتها وأكثر رعاية لها وحدبا عليها.

وحين تتابعت قوانين الاصلاح الزراعى ابتلعت الغالبية العظمى من ثروة فهمى عبدالحميد، فلما مات كان ما تركه من مال يكاد لا يقوم بشأن أولاده، فكان أسامة يعوضهم عما أصابهم كلما سنحت فرصة لا تجرح كرامتهم، وأصبح يحث زوجته أن تعطى أخويها كل ما يحتاجان إليه حتى لا يحسا بعنت الحياة، إلا أن الأخوين وجدا أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، فكتب كل منهما توكيلا لأسامة ليدير ما بقى من أرضهما، واتجه الأكبر جميل إلى الكويت، واتجه الأصغر صبحى إلى السعودية. ومرت الحياة بالزوجين أسامة وجميلة طيبة لا يشوبها إلا ما يشوب البيوت السعيدة من خلافات يمحوها الحب، أو شجار يعصف به الحنان.

وأنجبا راشد وفهمى، وراحت الحياة تكرر نفسها مع الطفلين ليدرجا فى طريق درج فيه أبواهما من قبل. قد تختلف تفاصيله، ولكن المعالم الأساسية فيه واحدة.

وحين كسدت سوق المحاماة المدنية، وفكر أسامة أن يتجه كما اتجه كثير غيره إلى البلاد العربية، جاءته أمه مرسيلة لتغير متجه حياته جميعا.

فمنذ ذلك اليوم الذى قصدت فيه إلى مكتبه أصبح أسامة من أكبر المحامين فى القضايا السياسية، ولم تكن هذه القضايا وحدها تكفى مكتبه، ولكن ذيوع اسمه فيها جعله بعيد الصيت فى القضايا الجنائية، وانتعش المكتب، واستقر أسامة، وأصبحت الحياة أمامه هانئة سعيدة، ومن أسعد من رجل بارع فى عمله يعترف الجميع ببراعته.



وهل هناك اعتراف أعظم من تلك الدعوة التى جاءت إليه عن طريق ضابط دخل إلى مكتبه بغير إذن ليقول له فى محاولة فجة للتلطف:

- سيادتك مطلوب.
- أنا؟
- نعم.
- من الذى يطلبنى؟
- ستعرف حين تذهب.
- اذهب.
- سأذهب معك.
- إلى أين؟
- ستعرف.
- لماذا؟
- ستعرف ذلك أيضا.
- أهو قبض؟
- لا. المسألة لن تصل لهذا.
- لقد وصلت فعلا؟
- إنها مجرد دعوة.
- هل استطيع الاعتذار؟
- طبعا لا.
- فهى أمر بالقبض وليس دعوة.
- سيادتك تستطيع أن تسميها كما تشاء.
- ألا أخبر البيت؟
- لا داعى.
- مجرد مشورة. أم هو أمر ألا أتصل؟
- لا داعى والسلام.
- ومن أين يأتى السلام؟
- تفضل.
- حاضر.


٣٣

حين وقعت هزيمة يونيو كان باسل وشهاب في باريس، وشاهدا الفضيحة العالمية على شاشات التليفزيون، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر تحجب صورة كل منهما عن الآخر دموع غزار لا تريد أن تنضب. ولم يكن عجيبا أن يفكر كل منهما أنهما كأنما يواجهان حادثة أمهما مرة أخرى، ولكنهما في هذه المرة أحسا أن العالم أجمع يعرف السر الذي ينطويان عليه، بل أحسا أن التاريخ أيضا أصبح يعرف هذا السر الذي لم يصبح سرا.

لم تصبح علاقة أمهما الآثمة حادثة يخفيها جدار بيت، وإنما أصبحت مثار اهتمام العالم أجمع.. التليفزيون والسينما والاذاعة والصحف في العالم لا حديث لها إلا عن أمهما.. وتتكسر النصال على النصال.

لقد كانا يغفران للحكم المصري كل ما يسمعانه من قهر الآدمية، وقتل الأبرياء، وخنق الكلمات، ومحق الرأي، وهدم الانسان في سبيل

أن يكون هناك جيش قوى يواجه العدو.

ثم وفى ساعات تصبح مصر والعروبة جميعا أهزوءة التاريخ على يد الجيش المصرى!

قلبانا عليك يامصر.. عرفا أن أمهما أصيبت بالسرطان، وأنها تنتظر الموت فى أية لحظة.

- نذهب.

- أتريد أن نذهب؟

- أمام الناس.

- وأمام نفسينا كيف سنراها!

- وأبى.

- هل نستطيع أن نصنع له شيئا؟

- الكثير.

- سيتجهم.

- ولكن قلبه سيفرح حين يرانا.

- هل رأيت قلبه؟

- لا. لم أره.

- كل الأبناء رأوا قلوب آبائهم فى ابتسامة، فى فرحة لقاء، فى اهتمام بمرض، فى سعادة بنجاح.. هل رأيت قلب أبيك؟!

- ولكن له قلبا.

- كيف نعرف؟

- لقد ستر على أمنا.

- يخشى على كبريائه.

- كان يستطيع أن يطلقها ولا يبدى الأسباب.

- لقد تعود أن تكون بجانبه.

- وهى لغيره؟!

- إنه مشغول دائما بنفسه.

- لعله خاف أن يذكرنا أحد بسوء.

- تحاول أن تجعل لنا أهمية عنده.

- إننا جزء منه.

- فى شهادة الميلاد فقط.

- إنه يخفى مشاعره.

- كان يستطيع أن يجعل مشاعره تخونه مرة واحدة مادام استطاع أن يجعل زوجته تخونه دائما.

- إننا لا نستطيع أن نعرف ما بداخله.

- مادمت لم أر له ظاهرا كيف أعرف داخله؟!

- هو الآن جازع.

- مرض زوجته قاتل.

- مصر كلها تعانى مرض مصر ومرض زوجته!!

- أتريد أن تسافر؟

- لا أعرف!

- فكر.

- أريد أن أرى أمى، وأريد أن أرى مصر، ولا أريد أن أرى أمى ولا أريد أن أرى مصر.

- لم يبق لنا إلا نفسانا.

- أخشى أن نقتل أبانا بما نفعله.



- وأنا أخشى أن نقتله إذا رآنا ونحن على هذه الحال.

- لا نذهب إذن.

- لعلنا نكون أشفق عليه لو لم نذهب.

- ومصر.

- ستكون أشفق بنفسينا إذا لم نذهب .

- لعل مصر تحتاج إلينا .

- إنما تحتاج للمنافقين والدجالين والهتافين والهازلين.

- لعلها الآن تحتاج للجادين.

- لو كانت، ما سمت الهزيمة نكسة وكأنها انفلونزا!

- إذن.

- نبقى.. فما بقي لنا إلا أنفسنا .

- معك حق.. نبقى.. فما بقي لنا إلا أنفسنا .



استطاع وجدى أن يغرى زوجته بالاكثار من الحفلات يدعو لها كل صاحب سلطة.. وهذه الحفلات لا تكلف المأكل والمشرب فقط وما هو بقليل. وإنما تكلف معها ملابس لكل حفل، وقد استطاعت ناهد فى غمرة هذه الحفلات أن تبيع أملاكها جميعا، وراحت تشترى بأثمانها مجوهرات لا يعرف زوجها عنها شيئا، ودبرت ناهد أمرها أحسن تدبير، وراحت تفحص الأشخاص الذين تعرفت بهم فى حفلاتها واختارت أخطرهم شأنا، وساعدها الحظ فكان أيضا أشدهم غباء، فألقت عليه شباكا قناصة لا تفلت صيدا.

وكان من الطبيعى أن يظن نفسه ساحر نساء، وهادم قلاع، وفاتح حصون. وما كان ذا فكر ليمعن به النظر، وليتبين أن الذى يتوهم أنه سحرها إنما هى التى سحرته، وأن القلاع التى هدمها كانت بلا جدران إلا بابا على الصحراء، فهى مفتحة من جميع جوانبها، ومن ثم فلا حصون هناك لتفتح.

أغرته ناهد، وقبل الاغراء، وأعد لها - وما كان أيسر هذا بالنسبة إليه - شقة كانا يلتقيان بها.. وما هى إلا لقاءات قليلة حتى واجهته ناهد:

- لا يمكن أن يستمر الحال هكذا.

- لماذا؟

- أتحسب أن أمرنا لن يعرف؟
- لا يمكن أن عرف.
- إذن اطمئن.. لقد عرف فعلا.
- كيف؟
- أنت فى نومة!!
- أنت التى تتوهمين أشياء لا ظل لها من الحقيقة.
- يا حبيبى فكر.. أنت شخصية مهمة جدا.. كيف يمكن أن تكون تنقلاتك مطلقة هكذا من غير عيون حواليك؟
- ماذا؟
- أتشك فى هذا؟
- انتظرى.. انتظرى.. يظهر أنك على حق.
- كيف؟
- بالأمس.. نعم لك حق.. فعلا.
- ماذا حدث بالأمس؟
- قال لى كلاما مبهما فيه هذا المعنى.
- مثل ماذا؟
- مثل ماذا.. مثل.. كل واحد منكم حر.. وأنا عارف أن كثيرين منكم لهم ليلى يهيم بها.
- أرأيت؟! ولكن ماذا يعنى بليلى؟
- لعله يقصد ليلى المجنون.
- أو غيرها.
- سأله أحدنا أى ليلى تقصد؟
- قال.. لك حق..
- ماذا قال!
- قال ليلى.. ناهد.. أو جواهر.. لا يهم.
- أرأيت؟

- فعلا.

- إذن ماذا ترين؟

- مادمنا فى مصر لا أمان لنا.

- وماذا تريدين؟

- أسافر.

- إلى أين؟

- إلى الخارج.

- وأنا.

- أنت ستجد أن الاتصال بى فى الخارج أسهل من الاتصال بى هنا. الطيارات كلها تحت أمرك.. أقيم فى فرنسا أو سويسرا أو انجلترا.. وكل شهر تأخذ اسبوعا أو أكثر وأقل اجازة ونكون على حريتنا.

- متى تستطيعين السفر؟

- الآن إذا استطعت أنت.

- ووجدى؟

- اتركه لى.

* * *

- سأسافر.

- مع السلامة.

- إلى الأبد.

- ماذا؟

- وهل تعتقد اننى أصرف هذه المبالغ لأبقى فى مصر؟

- وأنا؟

- أنت حر.

- أنا مستقبلى فى مصر.

- مع من؟

- مع هؤلاء الذين نعرفهم.

- أنت مستقبلك الحقيقى فى بيع رجولتك.
- ماذا تقولين؟
- لا تدعى الدهشة.. أنا عارفاك وأنت تعرف اننى عارفاك.
- وافرض.
- الستات اللواتى يشترين رجولتك تركن مصر.
- بعضهن مازال هنا.
- هؤلاء لا يدفعن ما يكفيك.
- مع وظيفتى فى الاتحاد الاشتراكى.
- والمخابرات.
- وتعرفين هذا أيضا؟
- أنت لا يكفيك هذا جميعه.
- إذن.
- سافر.
- وأرضى هنا.
- وماذا سيجرى لها؟ ستبقى وستظل تدخر ريعها وتنفق من ريع أعمالك.
- أسافر معك.
- لا.. فى الخارج لا يمكن.
- لا يمكن ماذا؟
- كنت هنا اشتريك لتكون ستارا أما فى الخارج. فأنا لا احتاج لهذا الستار. والنقود فى الخارج لها قيمة أخرى.. إنها فى الخارج عملة صعبة.
- ماذا تعنين؟
- العقد بيننا انتهى.
- ولكنك لا تستطيعين السفر من غير إذنى.
- وجدى!؟ هل أنت جاد؟
- طبعا لا.
- إذن.

- تكلمين الذى سهل لك السفر يرفع درجتى.
- فى المخابرات أم فى الإتحاد الاشتراكى؟
- المخابرات أهم.
- لا مانع.. العشرة على كل حال لا تهوون.
- تظاهرى اننى لن أوافق على السفر.
- تقصد الطلاق.
- كله واحد...
- هناك فرق.
- لم يختلف قولى إننى لن أوافق على الطلاق إلا أذا أرضانى هو وضحك على بترقية.
- أتظن أننى احتاج لدروسك.
- آسف.. نسيت نفسى.
- فعلا.

* * *

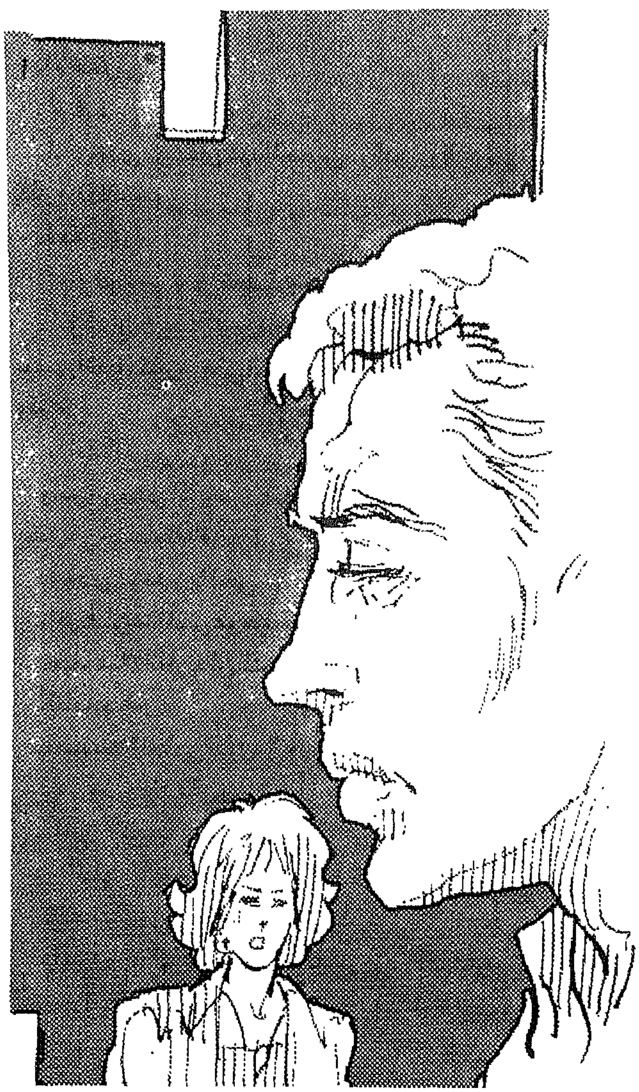
وسافرت ناهد، وحمل حقيبة المجوهرات صديقها ذو السلطان، وسلمها لها فى الطائرة.. وكانت التذكرة إلى لندن.. وكانت هذه التذكرة هى نهاية العلاقة بينهما. فقد قدر لصاحب السلطان أن يفقد سلطانه، فلم يعد يستطيع السفر. والشىء الذى مات دون أن يعرفه هو أنه باليقين والقطع كان لن يجدها فى ذلك العنوان الذى اتفقا على اللقاء فيه بلندن.

* * *

لم يكن عجيبا إذن أن يستقبل أسامة عند اعتقاله وجدى جالسا على مكتبه فى مبنى المخابرات العامة.

لما كان أسامة يعرف وجدى، ويعرف قصته جميعا، البادئة بمولده، والمارة بزواجه، والتى لم تنته بعد، لم يجد أسامة أى غرابة فى هذه الابتسامة الفاجرة التى لا تبالى شىء، والتى فى نفس الوقت توضح أى درك من الوضاعة ابتدع صاحبها.

- أهلا أسامة بك.



- أهلا.

- ألا تذكرنى؟

- آسف!

- أنا وجدى.. وجدى عبد المحسن.. والدى ووالدك كانا صديقين ونحن تقابلنا كثيرا ولكنك تنسى.

- فعلا كثيرا.

- أم تراك تنسى حين تحب أن تنسى؟

- المؤكد أن طريقة الدعوة أو الاستدعاء التى تفضلت بها على تجعل الإنسان ينسى أشياء كثيرة. حتى التى لا يحب أن ينساها. وهل كثير علينا أن تعطينا بعض وقتك؟

- يا أستاذ..

وأدرك وجدى أنه يصر على تجاهله، ولكنه لا يعنى كثيرا برأى الآخرين. فهو يكمل فى ابتسامته الفاجرة.

- وجدى.. وجدى يا أخى.

- المؤكد أن هذا ليس هو موضوع الحديث الذى تريدنى فيه.

- طبعا هناك ما أريد أن أكلمك فيه.

- أنا تحت أمرك.

- أصبحت المحامى الأول فى كل القضايا السياسية يا أسامة بك.

- وهل هذا ممنوع؟

- المظهر لا يليق.

- ما المظهر الذى لا يليق؟

- كأنك تأخذ من العهد موقفا مضادا.

- ياسيدى أنا أترافع فى القضايا التى يرى العهد أن يسمح للمحامين بالترافع فيها، والقضايا الأخرى لا يترافع فيها أحد. فماذا يضير أن أكون أنا المحامى أم غيرى؟

- خفف من قبول هذه القضايا.. يكفيك قضايا الجنايات، وخصوصا قضايا

المخدرات.

- يكفيني من أى جهة تقصد.

- القضايا الجنائية، وخاصة قضايا المخدرات أتعابها كثيرة.

- سيادتك شهادتك فى القانون؟

وأوشك وجدى أن يغضب بهذا التجاهل الكامل من أسامة. فهو واثق أنه يعرفه كل المعرفة.. ولكنه تماسك.

- فى القانون.. أنا خريج دفعة..

- لا يهم.. المهم أنك خريج حقوق.. أترى أن المحاماة أتعاب فقط. ألا ترى فيها أى شىء آخر؟

- طبعا.. طبعا.. هذا لاشك فيه.. واجبك نحو العدالة ونحو موكليك.

- الذى تقوله صحيح. ولو خلا من رنة السخرية يصبح هو الحقيقة.

- أنا لا أسخر استغفر الله.

- المهم.. المطلوب منى الآن ألا أقبل قضايا سياسية.

- والله يستحسن.

- أهذا كل شىء؟

- ألف شكر.

- تسمح لى.

- تفضل.

وقام أسامة، وأوصله وجدى إلى باب الغرفة، وصافحه مرة أخرى، وأغلق الباب، وأخذ أسامة طريقه إلى الباب الخارجى. ولكن ما هى إلا خطوات قلائل حتى وجد نفسه محاطا بقوة من الشرطة، ثم أغلقت عليه أبواب السجن.

مكث أسامة فى السجن لا يعرف شيئا عن تهمته، ولا تعرف أسرته عنه شيئا.

كان الذى رآه أسامة فى السجن بعضا مما كان يسمعه. لم يقع عليه هو تعذيب جسمانى. فهو لم يكن يخفى شيئا يريدونه أن يبديه، ولكنه عومل كما تعامل الكلاب الجرباء. وكانت هذه المعاملة مع ما يرى الآخرون يجرعونه نوعا من التدليل والرفاهية.

انصب عذاب الآخرين على نفس أسامة حتى لقد كان يخيل إليه أنه يعذب عذابهم أجمعين.. ولم يكن يشعر بنسمة فرح إلا حين يموت أحد المسجونين فيحس أسامة أن إنسانا أنقذه الله من براثن الغيلان المتشحة بجلود الآدميين والعجب أن أسامة كان يحس أن الذين يقومون بالتعذيب فى حاجة إلى الشفقة، لأنهم هم أنفسهم ما هم إلا أصابع الحاكم يفترس بها آدمية البشر، وإنسانية الإنسان، ويتمنى الموت للمسجونين جميعا، ولنفسه قبلهم، ويذكر قول المتنبى:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكان يعجب.. أيستطيع الحاكم أن ينام.. أتستطيع أصابعه هذه أن يهدأ لها ضمير.. وما هى إلا أيام حتى رأى فى وجوه الذين يقومون بالتعذيب علامات لم يكن قد تعرف عليها أول الأمر. وكيف لإنسان أن يرى على وجه وحش قسمات آدمى ويتعرف عليها. علامات لم يشهدها على وجوه بشر قبل اليوم.

لقد تغيرت ملامح البشرية فى وجوههم.. انقلبوا إلى جنس من المخلوقات غريب عن الأجناس التى يعرفها الكون أو يألفها الناس.. نوع من المخلوقات؟ لا هو إنسان ولا هو حيوان.. ولم يستغرب هذا الذى تبينه. فالإنسان لا يستطيع أن يصب هذا العذاب جميعه على مخلوق آخر، إنسان كان هذا المخلوق، أو كان حيوانا.

والحيوان حين يهاجم الفريسة لا يقدر أنها إنسان أو هى حيوان، وإنما فيها طعامه، وهو يريد أن يأكل أو يرى فيها عدوه. وهو يدافع عن نفسه، فالحيوان المفترس المتوحش طبيعى ومعقول فى كل هجوم يقوم به، وعمله جميعه له مبرره ومعقوليته. فما هذا الجنس إذن الذى يعمل فى هذه السجون، وأين يصنعه العهد وكيف ركبه، ومن أى مادة تكون هيكله وضميره. إن المتفرس فى وجوههم يرى مادة جديدة من المخلوقات يشك كثيرا أن تكون يد الرحمن قد مستها.. إنما هم كالحاكم الذى يأمرهم! سرطانات بشرية.. خلايا تفجرت من طين بلا روح.. ومن شر بلا خير، ومن مادة متوحشة عجنها ابليس وخلا تركيبها من ضمير أو قلب أو شعور.

مر بأسامة شهر وثان، وأوشك الثالث أن يكتمل، فإذا لغطيشب فى السجن، وهمهمات وجمجمة وهمس يفضى إلى همس، ورؤوس تميل فى براءة، وتعتدل فى أسى وجزع.. إنها حرب يونيه.. وفتحت أبواب السجون لا لتخرج أحدا وإنما

لتبتلع آخرين عرف منهم أسامة كثيرين.. ورآهم وهم يجلسونهم القرفصاء فلا تحتمل سيقانهم. فأغلبهم تجاوز الشباب، وأصبح يتوكأ إلى الشيخوخة، وما تحتمل سيقانهم ما يريدونهم عليه، ولكنهم جلسوا القرفصاء، ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم كقرود يدربها عفريت من الجن.

الوجوه غير البشرية، وغير الحيوانية، فيها رعب، وفيها حيرة، وفيها جزع.. إنها تخاف من المسجونين.. المسجونون عزل وبلا سلاح، وهاهم أولاء جالسون القرفصاء، وأيديهم فوق رؤوسهم، والسجانون بيدهم الأسواط، وبيدهم أدوات التعذيب الكهربية والحديدية، وبيدهم دائما الأسلحة النارية والمدافع السريعة الطلقات.

ولكن المسلحين بآلات التعذيب وبالأسواط وبالبارود والمدافع يخافون من هؤلاء العزل الجالسين القرفصاء، والواضعين أيديهم فوق رؤوسهم.

أهو موقف الحق الأشم أمام الظلم الخامس.. أم أن الخلايا السرطانية من أعوان السرطان الأعظم قد أصابتها روح من البشرية ألقتها إلى نفوسهم أنباء الحرب.. لا أحد يدرى!!

مرت أسابيع قلائل بعد الخامس من يونية، وأفرج عن بعض المسجونين وكان أسامة من بينهم.

خرج فوجد أمواله جميعا تحت الحراسة والبقية الباقية من أموال زوجته. بل إن أموال خديجة وضعت تحت الحراسة، وصدر الأمر الخاص بها باسم حرم المرحوم راشد برهان. ولست أدرى هل ارتجفت يد المارد الرعديد، وهو يضع تحت الحراسة أموال ميت أصبح فى ذمة الله، أم إنها كانت ثابتة متبجحة. أغلب الأمر أنها لم ترتجف. فالرجفة لا تبتعثها إلا بقية من آدمية.. وهيهات. ولو عرفوا الحق لتبين لهم أن خديجة لم ترث عن زوجها شيئا، وإنما كان مالها هو ما بقى لها عن أبيها، ولكن ما الفرق؟!

والعجيب ولو أن أى شىء لم يكن عجيبا فى ذلك الزمن أن أمر الحراسة يقول حرم المرحوم.. كيف تجرأ مصدر الأمر وخط كلمة توحى بالرحمة ليوقع بها قرارا لا يتصل بأى رحمة. إن أغلب مواد القانون تقضى بأن يعاقب المذنب بغرامة قدرها

كذا من المال، أو يسجن قدره كذا من الشهور أو السنين.. فالغرامة المالية إذن تستوى عند القانون مع العقاب الجسمانى. وهكذا يصبح الاستيلاء الكامل على مال شخص ما حكما بالاعدام المدنى، وبلا محاكمة.

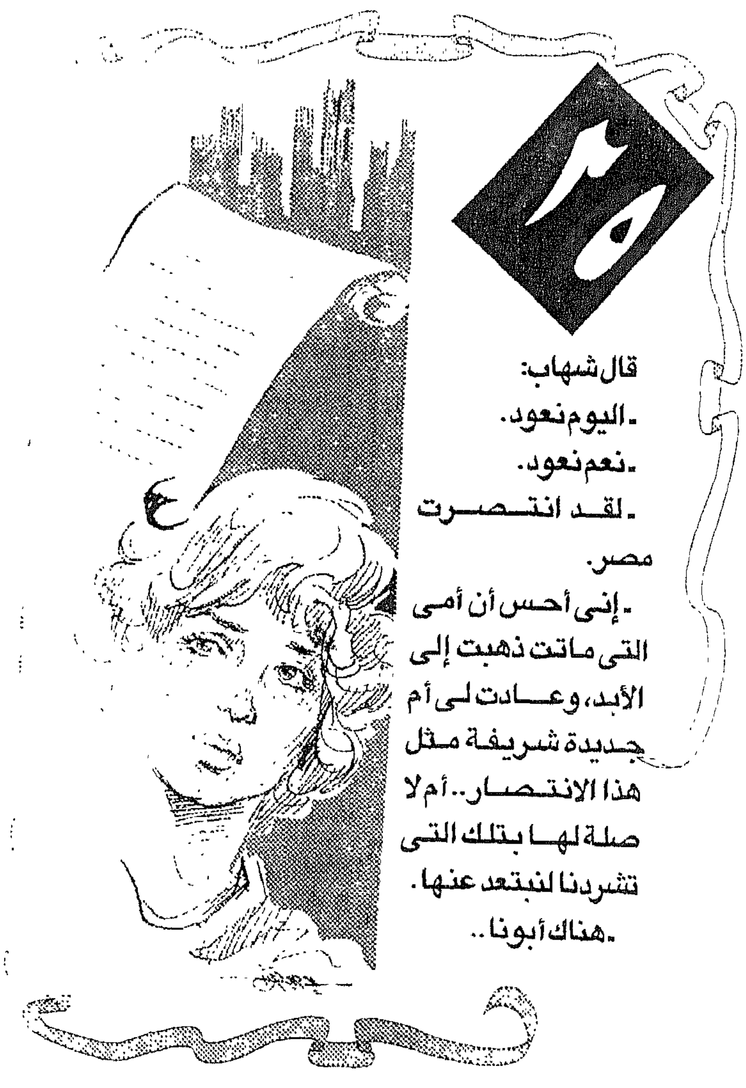
ومن عجب أن يصدروا حكما بالاعدام المدنى على شخص مات فعلا .. كيف يريدون أن يقتلوا من مات.. القانون يسمى هذه الجريمة المستحيلة، لأن القتل لا يكون إلا لحياة، ولا سبيل لأحد أن يقتل ميتا .. ولكن مع ذلك العهد لم يكن شىء مستحيلا.

لم يأبه أسامة، وإنما عاد إلى مكتبه، وواصل طريقه فى الحياة، وواصلت الحياة طريقها إلى جانبه.. صعبة عنيفة ولكنها شريفة.. وتسير.

* * *

حين تفجر الحق فى مصر، وحين أعاد الحكم أموال الناس إليهم، وحين انشدخ الظلام عن الصباح، وحين عادت الحياة إلى الحياة، أحس أسامة أنه استطاع أن يجتاز الأزمة الطاحنة.. ربما استطاع أبى أن يركب الموتوسيكل السيدكار، وربما عجزت أنا أن أجد فى بعض الفترات دراجة أتنقل عليها .. ولكن أبى استطاع أن يسير فوق الأزمة على موتوسيكل، واستطعت أنا أن أسير عليها بقدمى.

ولم ينكس أبى رأسه للفقر، ولم أنكس أنا رأسى للطغيان.. عجبا ألم يكن هو أنا وأنا أربأ بشرفى أن يدنسه ذهب الطغيان أو يذله تعذيبه.. من يدرى لعل روحه تلبستنى.. أو ربما .. لا أدرى.. ربما كنت أنا شجاعا .. من يدرى.. من سيذكر لى اننى لم أنحن.. لم أنافق.. لم أذل.. وماذا يعنينى أن يذكر ذلك أحد.. يكفى اننى أنا أذكر هذا لنفسى.. وحسبى، وفوق الحسب اننى أستطيع أن أواجه نفسى لا أخافها ولا استخذى.



قال شهاب:

- اليوم نعود.

- نعم نعود.

- لقد انتصرت مصر.

- إنى أحس أن أمى التى ماتت ذهبت إلى الأبد، وعادت لى أم جديدة شريفة مثل هذا الانتصار.. أم لا صلة لها بتلك التى تشردنا لنبتعد عنها.

- هناك أبونا..

- لعلنا نجده قد تغير.
- لا أظن.
- وهل كنت تظن أن مصر ستنتصر؟
- اسمع. لماذا لا نتغير نحن؟
- كيف؟
- إن أبانا لم يشعرنا أنه يحبنا.
- نعم.
- فهل أشعرناه نحن أننا نحبه.

ونظر باسل إلى أخيه طويلا، وراحت ابتسامة تنداح على شفتيه لتعلو إلى وجنتيه، ثم إلى جبهته، وخيل إليه وهو ينظر إلى أخيه، انه كأنما ينظر إلى مرآة، ولف الأخوين عبير مصرى له ذلك الأريج الخاص الذى لا يعرفه إلا من نبت فى أرض مصر، ومن ماء النيل، ترن فى أذنيه منذ ولادته: الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.

رقم الايداع / ٥٩٩ ١١/ ٩٦
الترقيم الدولى /
977-08-0562-

هى قصة ذات عروق بعيدة فى أغوار الزمن. لست بطلا من أبطالها ولكننى أحب أن أحكيها.. كيف أحكيها وأنا لست واحدا من أبطالها.. هل يهمك كثيرا أن أكون من أبطالها مادمت سأرويها لك.. لن أقول لك انها من واقع الحياة. فلا أحب أن أكون سخيفا إلى هذا الحد. ولكننى فى الواقع لست أدرى إن كنت أنت تحب الرواية من واقع الحياة أم من واقع الخيال. يقول الروائيون إن أهم شىء فى العمل الفنى أن يكون مقنعا ولا يهم من بعد المصدر الذى يصدر عنه. ولكن الحياة حين تؤلف لا تحاول أن تقنع. إنها تؤلف وتنفذ مؤلفها على الحياة وعلى صلات الناس بعضهم ببعض. وعلى بدايات حياتهم وعلى نهايتها ولا يعنيها فى شىء أن تكون مقنعة أو غير مقنعة للناس.. الناس جميعا فى كل مكان شهود فى كل قصة. وأبطال فى كل قصة. وقد تلهيهم الأحداث عن محاولة الفهم. وقد يفكرون. والذين يفكرون هم الأغبياء لأنهم لن يبلغوا من تفكيرهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من طمأنينة. بل هم سيزدادون حيرة وقلقا. بل قد يزدادون سخطا وتبرما ولا تعنى الحياة فى كثير أو قليل بحيرتهم أو قلقهم أو سخطهم أو تبرمهم.